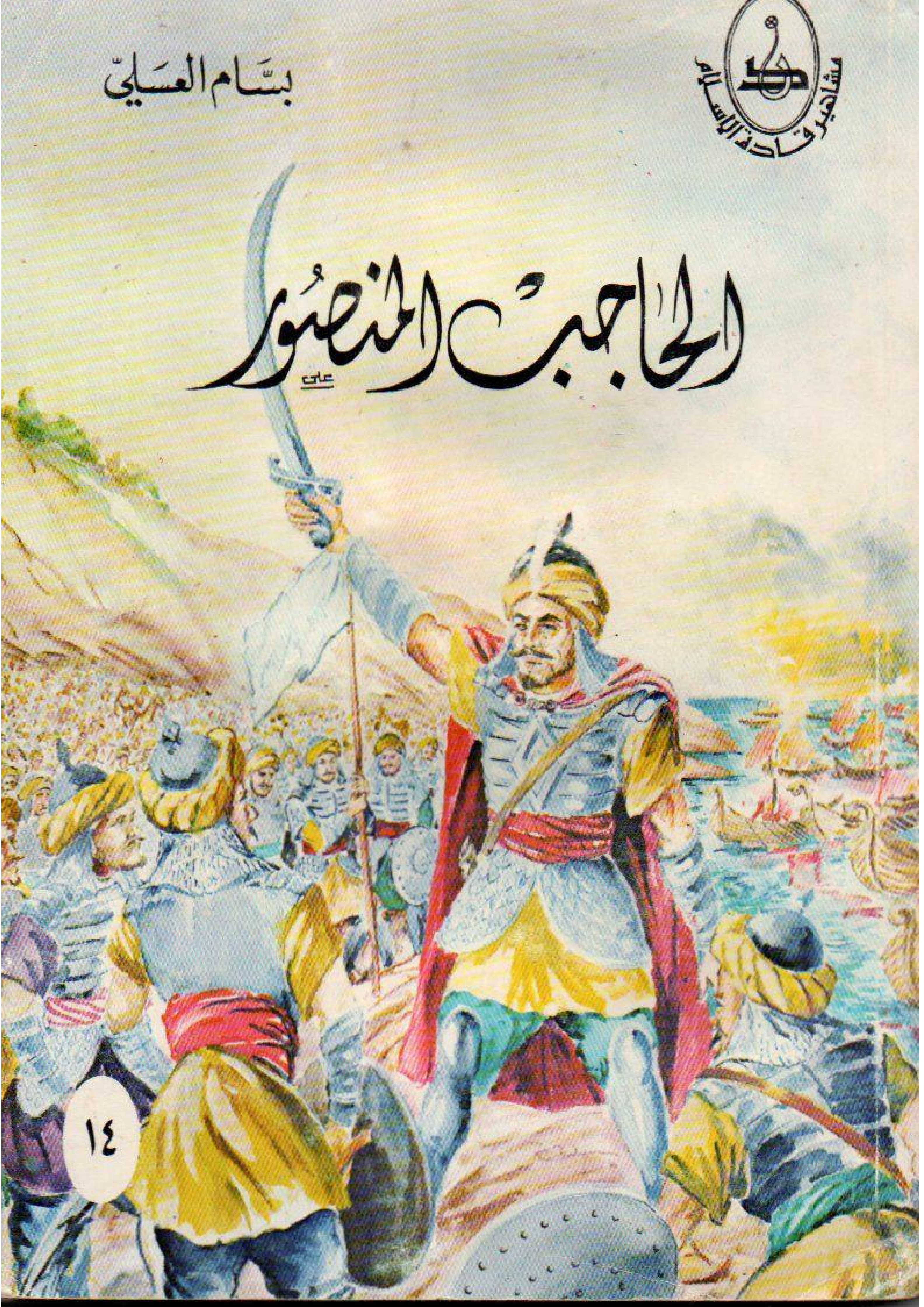
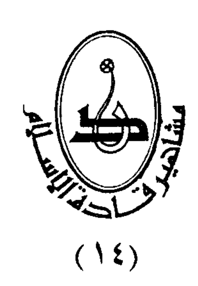
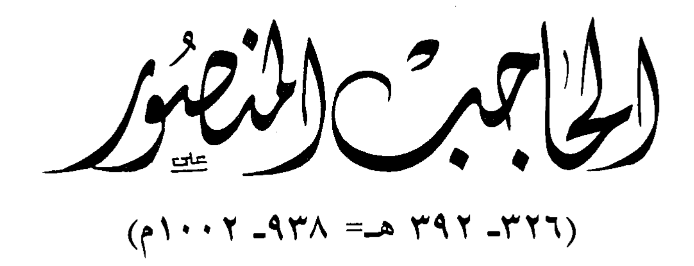

مشاهير قادة الإسلام
بسّام العسلي
الحاجب المنصور
١٤




(١٤)




(٣٢٦- ٣٩٢ هـ= ٩٣٨- ١٠٠٢م)

# بسّام العسليّ

دار النفائس

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

○ دار النفائس

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ . هاتف ٣٠٢٥٣٨ برقياً: دانفايسكو

صورة الغلاف بريشة الفنان خالد العسلي

بسم الله الرحمن الرحيم

# في كتب التاريخ

«توفي الحكم الاموي سنة ٩٧٢ م. وسيطر على الموقف من بعده الوزير محمد بن أبـي عامر المعروف بالمنصور، وهو الذي كان يميل الى القتال والجهاد. وكانت مملكـة ليون أهم مملكة مسيحية في اسبانيا، وقد تعرضت لهجمات المنصور. ففي سنة ٩٨١ استولى المنصور على زامورا بجنوب مملكة ليون، وفي سنة ٩٩٦ نهب ليون ذاتها، وفي السنة التالية أشعل الحرائق في شنت يعقوب في كومبو ستيللا التي تعتبر ثالث المواضع التي يقصيدها الحجاج بعد بيت المقدس وروما، ومع ذلك حرص هذا الأمير على أن يحترم المزار ذاته. وفي سنة ٩٨٦ م، استولى المنصور على برشلونة، وتراءى له أنه لن يلبث أن يعبر جبال البيرنيه- البرانس- حين وافته منيته سنة ١٠٠٢ م. واخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور».

**(تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان)**
**(١/ ١٣٤)**

«كان من قوة رجاء المنصور- أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في

كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة، عهد بتصييره في حنوطه، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه، توقعاً لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك».

(البيان المغرب ٢ / ٤٣٠)

«تحدث واحد ممن كانوا يلازمون المنصور فقال: «قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها: قد أفرط مولانا في السهر. وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب. فقال: يا هذا ـ الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة».

(نفح الطيب ـ المقري ـ ١ / ٤١٦

«انفرد المنصور بنفسه. وصار ينادي صروف الدهر هل من مبارز، فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم، وإنها لخاصة ما أحسب أحداً من الملوك الاسلامية شاركه فيها، ومن أعظم ماأعين به مع قوة سعده وتمكن جده، سعة جوده وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان، وأول ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق».

(البيان المغرب ٢ / ٤٢٧)

«عندما توفي المنصور سنة أربع وتسعين وثلاثمائة (والأصوب سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة للهجرة) وهو منصرف من بعض غزواته، فدفن بمدينة (سالم) وكتب على قبره:

آثارُه تُنبيكَ عنْ أخْبَاره حتى كأنَّكَ بالعِيانِ تَرَاهُ
تالله لا يَأتي الزمانُ بمثْله أبداً، ولا يحمي الثغورَ سِوَاه

ومرت الايام متسارعة بعد ذلك، وتمزقت الاندلس بين ملوك الطوائف، وأفاد نصارى الشمال للقيام بهجوم عام، سيطروا به على عدد من مدن الشمال واقاليمه (وكانت مدينة سالم من بينها). وروى شجاع مولى المستعين بن هود القصة التالية عندما ذهب لمقابلة الفونسو (الأذفونش): لما توجهت الى اذفونش وجدته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر مليكهم؟ قال: فحملتني الغيرة أن قلت له: لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار. فهمَّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه. وقالت له: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟»

(الحلة السيراء ١ / ٢٧٣)

**وكان المنصور شاعراً، ومما اشتهر من شعره:**

رمَيْتُ بنفسي هولَ كلِّ عظيمة وخاطَرْتُ والحرُّ الكريم يخاطرُ
وما صاحبي إلا جنان مُشيَّعٌ وأسْمَرُ خَطيٌّ وأبيض باترُ
فسدت بنفسي أهلَ كلِّ سيادة وفاخَرتُ حتى لم أجدْ مَنْ أُفاخرُ

وما شدت بنياناً ولكن زيادة    على ما بنى عبدُ المَليك وعامرُ
رفعنا المعالي بـالعوالي حـديثة    وأورثناها في القديم مَعَافِـرُ

(ابن عذارى - ٢ / ٤٠٩)

وأوصى الحاجب المنصور ابنه عبد الملك، وهو على وشك الهلاك، بقوله:

« . . فإن انقادت لك الأمور بالحضرة- قرطبة- فبها، وإلا فانتبذ بأصحابك وغلمانك إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك، وانتظر غدك إن أنكرت يومك، وإياك أن تضع يدك في يد بني مروان، فإنـي أعرف ذنبي لهم».

(المغرب في حلى المغرب- ١/ ١٩٧)



# الوجيز في حياة الحاجب المنصور

## (٣٢٦- ٣٩٢ هـ = ٩٣٩- ١٠٠٢ م)

| السنة الهجرية | السنة الميلادية | وجيز الأحداث |
|---|---|---|
| ٣٢٦ | ٩٣٨ | ولادة محمد بن أبـي عامر المعافري في تركش / من الجزيرة الخضراء |
| ٣٦٦ | ٩٧٦ | وفاة الحكم المستنصر (الخليفة الاموي) وبداية ظهور المنصور |
| ٣٦٦ | ٩٧٦ | قيادة المنصور لغزوتين ضد دول (نصارى الشمال) |
| ٣٦٧ | ٩٧٧ | زواج الحكم من أسماء بنت غالب الناصري اكبر قادة الأندلس |
| ٣٧١ | ٩٨١ | استولى الحاجب المنصور على سمورة واعمل فيها احراقا وتدميراً |
| ٣٧٣ | ٩٨٣ | غزو ليون- والاستيلاء عليها واحراقها. |
| ٣٧٦ | ٩٨٦ | تحرير (برشلونة) من سيطرة الفرنج. |
| ٣٧٩ | ٩٨٩ | غزوة البياض (وتحرير شنت اشتبين). |
| ٣٨٧ | ٩٩٧ | حملة شنت ياقب (اكبر حملات المنصور). |
| ٣٩٢ | ١٠٠٢ | آخر غزوات المنصور- وفاته- ودفنه في (مدينة سالم) |


Khaled

# المقدمة

قد نتعاطف مع الحاجب المنصور عندما نطالع سيرته، وقد لا نفعل، غير أننا لا نستطيع في الحالتين إلا أن نتوقف طويلاً لنتأمل باعجاب تلك المنجزات التي حققها ذلك الرجل بعزمه وإيمانه. إنه نسيج فريد بين الرجال، ونموذج لا نظير له بين القادة، وقد تكون هناك ملامح متشابهة بين بعض الرجال، في حوافزهم ودوافعهم، في طموحاتهم ومطامعهم، في أخلاقهم وطبائعهم. غير أنهم لا بد وأن يختلفون فيما يحققونه، وفيما ينجزونه، بقدر ما يتباينون في طرائقهم وأساليبهم.

لقد برز الحاجب المنصور في فترة صعبة من حياة الأندلس الإسلامية، كانت فيها ممالك النصارى في الشمال قد اكتسبت كل ظواهر الدول وقوتها، وأخذت هذه الممالك في توجيه جهدها لحرب المسلمين من قبل أن تعلن الحرب الصليبية بصورة رسمية. وكانت أندلس المسلمين قد عرفت في عهدي عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر ذروة عهد المجد والقوة، غير أن هذه القوة كانت تخفي تحتها من ظواهر التمزق المرعبة ما يتهدد أندلس المسلمين بشر مستطير. وجاءت وفاة الحكم المستنصر المباغتة، وعدم وجود رجل

قوي من البيت الأموي يتولى الاضطلاع بإدارة الدولة والحرب، ليترك فراغاً خطيراً، فتصدى الحاجب المنصور لحمل المسؤولية، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، وأعاد التنظيم الشامل للدولة، وحشد كل القوى والإمكانات المتوافرة لرفع راية الإسلام والمسلمين، وقاد الحرب طوال حياته فأحرز من الانتصارات ما لم يحصل عليه رجل من قبل ومن بعد، فترك بذلك مجداً خالداً بقي متألقاً على مرّ الأيام، ومفخرة لجند الإسلام.

ويتشابه الحاجب المنصور مع أولئك الذين أبرزتهم الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي من أمثال صلاح الدين الأيوبي والمظفر قطز والظاهر بيبرس وأحمد بن قلاون وسواهم ممن أخلصوا لقضية الجهاد في سبيل الله فنالوا الحسنيين: ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وكتبوا أسماءهم في سجل الخالدين من مشاهير المسلمين الذين لا زالوا أبداً كالنجوم تهدي المسلمين وتضيء سماءهم كلما اظلمت الدنيا وعظمت الخطوب. غير أن هذا التشابه الظاهري لا يخفي ابداً التناقض أو التنافر بين شخص الحاجب المنصور وبين أقرانه من قادة المسلمين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في حقب تاريخية مختلفة، وعلى ميادين جغرافية متباينة. وبذلك بقي الحاجب المنصور نسيج وحده، إنه رجل الدنيا والآخرة، ورجل الآخرة من خلال عمل الدنيا. ولقد أمضى المنصور حياته مجاهداً صابراً محتسباً، لم يقتصد في جهد مبذول، ولم يقصر في تقديم اكثر مما هو مستطاع لدعم القضية التي وقف حياته عليها، قضية الجهاد في سبيل الله، ثم هو يترك لابنائه من بعده ملك الدنيا، ويقيم «الزاهرة» رمزاً لامتلاك الدنيا، فهل كان حرصه على دعم هيبة دولته، ورغبته في تسليم الأمانة لمن هو اكثر حرصاً عليها قد دفعه الى ما فعله؟ تلك قضية أمرها متروك للحاجب

المنصور وربه ـ رب السموات والأرض ـ أما ما هو ثابت من وقائع الدنيا فهو ملك للاسلام والمسلمين وهو إرث لا يمكن للانسان المسلم إلا أن يفخر به ويفاخر الدنيا بإنجازه.

أثارت حياة المنصور قدراً غير قليل من الجدل والنقاش، وقد حفظت الأوابد الأندلسية بصورة خاصة الكثير من وجهات النظر المتناقضة في تقويم أعمال الحاجب المنصور ومنجزاته. وليس ذلك برهاناً على أمانة المؤرخين المسلمين في حفظ المادة التاريخية فحسب، بل إنه برهان أيضاً على ما أثارته هذه الشخصية الفردة من الانفعالات المثيرة أيام حكمه وبعد مماته. ولم تكن هذه الانفعالات مجرد نزوات عاطفية، أو نتيجة لمواقف عصبية متصلبة، بقدر ما كانت تعبيراً عن أهمية ما تركته أعمال الحاجب المنصور من تأثير عميق في حياة مسلمي الأندلس بصورة خاصة، وحياة العالم الاسلامي بصورة عامة.

ومضى الحاجب المنصور للقاء وجه ربه بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال. ومضت الأندلس الاسلامية من بعده لمجابهة قدرها فكانت لها وقائعها الخالدة وأيامها الماجدة. وتعرضت أندلس المسلمين لما تعرض له المشرق الاسلامي من حروب صليبية، لم تعرف التوقف أو الهدوء إلا بقدر ما تتطلبه هجمة جديدة في إطار مختلف وشكل مغاير.

وتمضي سيوف المسلمين في قوافل متتالية، وهي تترك للدنيا شهباً مضيئة، وركاماً ضخماً من التجارب التاريخية المثيرة والمفيدة. ومن هذا الركام الضخم، وعلى هدي تلك الشهب المضيئة في الظلمة الحالكة، يستمد المسلمون قدرتهم لمتابعة الطريق ابداً وهم يرفعون، دونما كلل، ودونما وهن راية الجهاد في سبيل الله.

**بسام العسلي**



# الفَصْلُ الأَوَّل

# المنصور
# ـ محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ـ

١ـ الحاجب المنصور
٢ـ الأمويون
٣ـ السيطرة على مراكز القوى
آ ـ المنصور والمصحفي
ب ـ المنصور وغالب
ج ـ المنصور وصبح والمؤيد
د ـ المنصور والخلافة
٤ـ نقل المقر من الزهراء الى الزاهرة



# ١ـ الحاجب المنصور

لم تكن حياة القرية مثيرة ولا صاخبة ، وَقَدْ ولد على غير ارادة منه في قرية (تركش)[١] كما يولد كل الاطفال .وكانت قريته هذه غير بعيدة عن قرطبة ، وبدأت الحياة تتفتح أمام سمعه وبصره . لقد كانت تركش راقدة في سهول (الجزيرة الخضراء) حيث ذكريات الفتح ، وحيث القاعدة القوية والصلبة لدولة العرب المسلمين في الأندلس . من هنا مر طارق بن زياد بعد معركة وادي لكة ليصل الى عاصمة القوط (طليطلة) . ومن هنا سار موسى بن نصير بجيوش المسلمين حتى أكمل فتح شبه الجزيرة الأندلسية . ومن هنا أيضاً مر عبد الرحمن الداخل صقر قريش ليقيم دولة الأمويين في الأندلس . وهو ابن او حفيد واحد من عظماء الفاتحين الذين وفدوا مع طارق بن زياد أول الداخلين من العرب ، ويستعرض الطفل أنسابه ـ والعرب مولعون بالانساب تعبيراً عن أصالتهم ، وتأكيداً على عمق جذورهم ، ونقاء محتدهم ، فهو محمد

---

(١) تركش ،من اعمال الجزيرة الخضراء ـ جنوب الاندلس ـ وهي في المغرب (كرتش) وفي المعجب (طرش) . وفي المغرب ١٤٣/١ ما يلي : «وباقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل» .

ابن عبد الله بن عامر بن أبـي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري. وجده (عبد الملك) هذا هو الذي رافق طارق، فكان له شرف الريادة. كانت جبال الثلج (سيرانيفادا) تعانق سهول الجزيرة وقراها المتناثرة والنائمة بأمن ودعة وسكون. غير أن مطامح الطفل الشاب ظهرت مبكرة وهي تتجاوز حدود القرية والسهل. ورانٍ ببصره الى عاصمة الدنيا (قرطبة) التي لم تكن بعيدة عنه. لقد كانت قرطبة عاصمة العلم والمعرفة، وكانت مركز الحرب والسياسة، واستجاب قلب الطفل الشاب لنداء المستقبل، فحزم متاعه، وتوجه الى عاصمة أمويّي الأندلس، غير محدد بدقة ما يريد، وغير عارف بدقة ما سيؤول اليه أمره، كل همه (أن يكون شيئا) وليس هناك ما يساعده ليكون هذا الشيء غير العلم، وغير المعرفة، فبالعلم والمعرفة يمكن له شق طريقه. وأقبل على مناهل العلم والأدب، فنبغ فيهما، وعب من موارد شعر الاجداد فأصبح شاعراً بليغاً. ولم تكن الجرأة تعوزه، فهو عربـي أصيل، لم يصل الى هنا إلا بفضل الاسلام والجهاد في سبيل الله، فتوافرت له العوامل الاساسية المكونة لشخصية الفارس العربـي المسلم. ولكن بقيت المشكلة هي اختيار نقطة البداية التي تؤدي الى الهدف. ولم يطل الطفل الشاب التردد، «فاقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعفُ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صُبح أم المؤيد من يكتب عنها، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقى الى أن كتب عنها، فاستحسنته، ونبهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة»[1]. «وكانت له همة لم تزل ترتقي من شيء إلى شيء إلى أن

---

(١) نفخ الطيب ١ / ٣٩٩.

اعتنت به صبح أم هشام المؤيد. فصارت له الحجابة. وكان له مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه أهل العلم»[1] ترى هل كان قعود الفتى الشاب بباب قصر قرطبة مجرد مصادفة حمله عليها قدره ام كانت وفق تخطيط محكم تفتق عنه ذهن الشاب الطموح؟.. وهل كان اجتذاب الشاب الفتى لخدم القصر وحراسه وحملهم على تأمين الاتصال بصبح أم المؤيد مجرد مصادفة أيضاً حبكتها يد القدر؟ المهم في الأمر هو أن الشاب الفتي انتقل من باب القصر الى داخل القصر، وكانت حلقة الاتصال هي أقوى الحلقات. وهل هناك من هو أقوى سلطة من (المرأة) الاثيرة عند حاكم قرطبة؟ ولكن من هي هذه (صبح)؟ إنها من (البشكنس) أو- الباسك- وقد غلب عليها اسم قومها فعرفت باسم (صبح البشكنسية) تزوجها الحكم المستنصر. وأنجب منها ابنه المؤيد هشام، وسواء كان هذا الزواج سياسياً - للتقرب من الباسكيين - أو كانت سبية أعجبت الحكم فتزوجها. فالنتيجة واحدة إذ لم تلبث أن أصبحت سيدة القصر الأولى، وكانت ذكية جداً على ما يظهر حتى تمكنت من فرض هيمنتها على أجهزة الحكم والدولة، ولم يكن ذلك بالظاهرة الشاذة، فقد كان للاندلسيات المسلمات دورهن الكبير في المجتمع الأندلسي، كانت منهن الاديبات، وكانت منهن الشاعرات، وكانت منهن المجاهدات الصابرات، ولا غرو بعد ذلك أو غرابة أن يجد رجال البلاط في السيدة صبح ملاذاً يساعدهم على حل ما يستعصي عليهم من أمور، ومقابل ذلك أيضاً، يصبح من الطبيعي استجابة رجال البلاط لما كانت تأمر به سيدة القصر وما تريده. وإذا كان هدف الشاب الفتى- المنصور- هو ارضاء السيدة، فقد كان لا بد له من تقديم الخدمات لكل سيدات

---

(١) المغرب في حلى المغرب ١ / ١٩٤.

القصر حتى يعملن على إطرائه أمام السيدة الأولى، فيقوى ذكره، وتترسخ مكانته، وهذا ما أوردته بعض المصادر التاريخية: «وقوي على أمره بنظره في الوكالة، وخدمته للسيدة صبح أم هشام، وكانت حاله عند جميع الحرم أفضل الأحوال بتصديه لمواقع الارادة، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة»[1] وعرف المنصور أن (الهدايا هي أفضل وسيلة للوصول الى قلب سيدة القصر) وكان هو المسؤول عن ادارة املاكها والنظر في مزارعها وبساتينها، ولم تكن تعوزه الامكانات، فأغدق الهدايا، ويذكر: «أنه صنع يومئذ قصراً من فضة لصبح أم هشام، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حبها بذلك، وقامت بأمره عند سيدها الحكم، وحدث الحكم خواصه بذلك، وقال: إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهن به»[2]. وعلى كل حال فلم يكن الحكم من الرجال الذين يمكن لهم التسامح في القضايا العامة. فكان لا بد من وضع الفتى الشاب تحت الاختبار، بتوليته المناصب التي يمكن من خلالها وضع كفاءة الشاب موضع (الامتحان والبلاء) ونجح المنصور بما أوردته المصادر التاريخية على النحو التالي: «وكان أن ولاه الحكم قضاء بعض المواضع. فظهرت منه نجابة، فترقى الى الزكاة والمواريث بإشبيلية، وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره»[3] ولقد كان الشاب الفتى في حاجة لاستنفار كل امكاناته ليبرهن على كفاءته. إذ كان يعرف أن مكانته في القصر، وفي الحكم، لا يمكن أن تكون بديلاً عن ممارسة الأمور العامة بكفاءة عالية، وهو ما تؤكده القصة التالية: «قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس، فتجرد ليسبح في النهر، وترك الكيس، وكان

(١) نفح الطيب ٣ / ٨٧.
(٢) نفح الطيب ٣ / ٨٨.
(٣) نفح الطيب ١ / ٣٩٩.

أحمر ، على ثيابه، فرفعته حدْأة في مخالبها، فجرى تابعاً لها وقد ذهل ، فتغلغلت في البساتين، وانقطعت عن عينه، فرجع متحيراً، فشكا ذلك إلى بعض من يأنس به، فقال له: صف حالك لابن أبـي عامر، فتلطف في وصف ذلك بين يديه، فقال: ننظر إن شاء الله تعالى في أمرك. وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين، ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حال، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل، اشترى حماراً وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك، فأمر بمجيئه، فلما وقعت عينه عليه، قال له: أحضر الكيس الأحمر، فتملك الرعب قلبه وارتعش، وقال: دعني أتي به من منزلي، فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس. وقد نقص منه ما لا يقدح في مسرة صاحبه، فجبره، ودفعه الى صاحبه، فقال: والله لأحدثن في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبـي عامر يحكم على الطيور وينصف منها، والتفت ابن أبـي عامر الى الزبال، فقال له: لو اتيت به أغنيناك، لكن تخرج كفافاً، لا عقاباً ولا ثواباً»[1].

ترى هل تقف مطامح الفتى الشاب عند حدود ما وصل اليه، أم تراه يرى فيما بلغه مجرد بداية لهدفه الكبير؟ لقد أصبح (شيئاً مرموقاً) في الدولة الأموية، وهي دولة وصلت الى مرحلة متقدمة في ثبات البنيان. واكتسبت بفضل التقادم نوعاً من الهيبة الموروثة، والشرعية الموصوفة. وكان لخلفاء بني أمية من القوة والحزم ما يضمن لهم السيطرة على كل طامح، وكبح جماح كل طامع. هنا تدخل لعبة القدر لتمارس دورها في رسم مستقبل الدولة ومستقبل الفتى الشاب في وقت واحد.

(١) ابن عذارى ٢/٤٣٥، وفي نفح الطيب ١/٤١٢ و٤١٣ القصة ذاتها باسلوب مغاير وبتفاصيل اضافية.

# ٢ـ الأمويون

وصلت دولة الأمويين في الأندلس الى عصر قوتها ومجدها خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ـ ٣٥٠ هـ = ٩١٢ـ ٩٦١ م) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ـ ٣٦٦ هـ = ٩٦١ـ ٩٧٦ م). وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند فترة (الحكم المستنصر) نظراً لأن هذه الفترة هي التي سبقت ظهور الحاجب المنصور.

توفي عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م. وترك دولة وطيدة الاركان ثابتة البنيان. فقد استطاع خلال فترة حكمه أن يضع الاسس الثابتة لدولة الامويين في الأندلس حتى وصلت في عهده الى ذروة مجدها ورفعتها، ونجح الناصر في القضاء على ثورات المولدين وتمرد العرب والمستعربين، وألزم دول الشمال بالتوقف عن الأعمال العدوانية، فعادت الأندلس الاسلامية الى مثل ما كانت عليه أيام الفتح الأولى. وعاشت الاندلس في حياة الناصر أيام السلم والاستقرار والأمن مما لم تعهده من قبل. وعندما تولى الحكم المستنصر سار على خطوات أبيه، واتبع طريقته في الحكم والقيادة «وهكذا فعندما تولى الحكم المستنصر خلافة قرطبة، وجه اهتمامه الى الجيش

وأخذ في التأهب للحرب، وأنفذ الكتب الى سائر الولاة والقادة بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله»[1] وكان أول ما جابه الحكم المستنصر هجوم نصارى الشمال. وهو ما تعرضت له المصادر التاريخية بالتالي: «طمع الجلالقة في الثغور لأول وفاة الناصر، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، واقتحم بلد- فرذلند بن غند شلب[2] فنازل شنت أشتيبان[3] وفتحها عنوة واستباحها. فبادروا الى عقد السلم معه، وانقبضوا عما كانوا فيه، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد - جيليقية-[4] وسار الى مدينة سالم[5] لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرذلند ودوخها. وكان (شانجة بن ردمير) ملك البشكنس[6] قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره،

---

(١) ابن عذارى ٢/ ٣٥٠ و٣٥٣- ونفح الطيب ١/ ٣٨٢ وابن خلدون ٤/ ١٤٤.

(٢) فرذلند بن غند شلب: . FERNANDO (FERDINAND) GONZOLA

(٣) شنت اشتيبان: SAN - ESTEBAN ، كانت من الثغور الرئيسية في الشمال، وكانت قوات النصارى تستخدمها للهجوم على مدن المسلمين وقراهم. وتعرف ايضاً باسم قاشتر مورش CASTRO – MUROS

(٤) جيليقية: GALICE مملكة اسسها فرديناند الأول ملك ليون وقشتالة، وأورثها الثالث غرسيه: GARCIE (١٠٦٥ - ١٠٧٣ م) وضمت اليها قشتالة اعتباراً من سنة ١٠٧٣ م. ويشمل اقليم غاليسية (او جيليقية) حالياً المناطق التالية: كورونا COROGNE وبونتيغيدرا وليغو واورنس.

(٥) مدينة سالم: MEDINACELI ، وهي تضم الناحية- الكورة- المسماة ايضاً بكورة سالم، ويقال أن طارق وجد فيها المائدة المنسوبة الى سليمان، وبها دفن الحاجب المنصور.

(٦) البشكنس: LES BASQUES . وهم سكان سفوح جبال البيرينه الغربية في الطرفين الفرنسي والاسباني. وهم الذين اشتهروا بتأسيس إمارة (نافار NAVARRE) وعرفوا بأنهم مقاتلون جبليون اشداء لا زالت- حتى اليوم- لهم لغتهم الخاصة التي تختلف عن اللغتين المجاورتين الفرنسية والاسبانية.

فهزمهم وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها وقفل. ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها. وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا. وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح - قلهرة - من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها، ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة -[1] وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك - البسط والسجاد - والأطعمة والسبي ما لا يحصى».

لم يكن نصارى الشمال هم الخطر الوحيد الذي كان يتهدد باستمرار دولة الامويين بالاندلس. فقد كان امراء امية في صراع دائم مع ولاية أفريقية في الجنوب، وقد تعاظم خطر تهديد الجنوب بظهور دولة الفاطميين في مصر، حيث قام اسطولهم بالهجوم على ثغر (المرية)[2] أكبر الثغور البحرية للدولة الأندلسية الاسلامية (سنة

(١) وشقة: HUESCA - أو قلهرة: CATALOGNA غرب تكيلة على نهر ابره. وفي البيان المغرب ٢/ ٢٦٧ وكان شانجة قد اتخذ من قلهرة معقلاً له ومسكناً.

(٢) المرية : ALMERIA مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر وازدهرت ايام المرابطين واشتد فيها الرخاء، وتقع على الساحل الشرقي - على البحر الابيض المتوسط - الى الجنوب الشرقي من بجانة. ووادي المرية طوله أربعون مُتـراً في مثلها كلها بساتين بهجة. وفي المغرب في حلى المغرب ٢/ ١٩٣ «والمرية، سورها على ضفة البحر، وبها دار صناعة، وهي باب الشرق ومفتاح الرزق. ولها على غيرها من نظرائها أظهر مزية، بنهرها الفضي - وبحرها الزبرجدي، وساحلها التبري، وحصاها المجزع ومنظرها المرصع وأسوارها العالية الراسخة، وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة. وفيها من صنعة الخز وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يبصر مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى».

٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م) وعمل هذا الاسطول على احراق الاسطول الاندلسي وتدمير المرية ذاتها. وعندما تولى الحكم المستنصر خلافة الأندلس، كان أول ما فعله: «هو أنه غطى البحر بينه وبين المغرب باساطيل الأموال والأسلحة والعدد والأطعمة، واستدعى غالب بن عبد الرحمن من الجزيرة، وكلفه بغزو افريقية، كما جمع مستشاريه وأمرهم بالتأهب للغزاة في الاسطولين - اسطول أشبيليا واسطول المرية - وأقلع غالب بن عبد الرحمن من الجزيرة الى طنجة بعد أن استكمل أهبته فيها، وقدم اجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب. ولم يلبث الحكم المستنصر أن وجه جيشاً آخر بقيادة صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بمهمة دعم غالب بن عبد الرحمن «وفي عام ٣٥٣ هـ = ٩٦٣ م قصد الحكم المستنصر ثغر (المرية) للاشراف على تحصين المدينة واتخاذ ما هو ضروري لتجديد الاسطول وتعزيزه وتأمين متطلباته من الخشب والزفت والقطران من كورة - ناحية - جيان - الى اشبيليا والجزيرة لصناعة السفن. وكانت الراسية في ميناء المرية يومئذ ثلاثمائة قطعة»[1] كما اهتم الحكم المستنصر بتحصين الثغور فأوفد أحمد بن نصر لبنيان مدينة بثغر طليطلة وتشييدها وتوثيق أمورها وجعل بين أيديه أحمال الأموال.

عاد ابو تمام غالب بن عبد الرحمن من مهمته في أفريقية منتصراً، غير أنه لم يكد يستقر في قرطبة حتى تحركت أحداث الشمال بهجوم جديد حشدت فيه إمارات الشمال كل قواتها. وقرر الحكم توجيه الصائفة وتكثيفها بقيادة غالب بن عبد الرحمن. وعقد مؤتمراً للحرب حضره الحاجب صاحب المدينة جعفر بن عثمان المصحفي

---

(١) الاحاطة ١ / ٤٨٧ وابن عذارى ٢ / ٣٥٠ و ٣٥٢.

وبعض المستشارين. وتوجه غالب لتنفيذ مهمته، بعد أن عمل الحكم المستنصر على تقليده سيفين من ذخائر سيوفه مذهبين حليتا غمديهما أثقل حلية بأغرب صنعة... كما ضم الى ركابه أشهب رائع من مقربات الخليفة بسرج معرق ولجام مفرغ. وغادر الوزير غالب ـ ذو السيفين ـ دار الخليفة وأسرع في الاستعداد لتنظيم قوته ومغادرة قرطبة.. .وفي الوقت ذاته أصدر الخليفة الحكم الى وزرائه ومستشاريه العمل جميعاً لزج كل الامكانات وتأمين كل المتطلبات التي يحتاجها قائد الصائفة ـ الوزير غالب ـ ولم يمض اكثر من يومين حتى غادرت الصائفة قرطبة (بعد اجراء عرض للقوات) وقاد الوزير غالب القوات بكفاءة عالية، وتمكن من تدمير قوات النصارى المتحالفة التي يبلغ عدد مقاتليها ٦٠ ألف مقاتل. وسقط فوق أرض المعركة أكثر من ٢٠ كونتاً (قومساً). ولم تكن هذه المعركة هي كل ما قاده الوزير غالب من عمليات حربية أكد فيها كفاءته العالية في ادارة الحرب.

يظهر من خلال العرض الوجيز السابق أن حياة الحكم المستنصر كانت حياة جهاد دائم وصراع مستمر في الشمال مع النصارى وفي الجنوب مع الفاطميين والافارقة وفي الداخل مع مراكز القوى المضادة، علاوة على تلك الغزوات المباغتة التي كانت تقوم بها شعوب البحر (النورمان)، مثل هجومهم على ثغر (قصر أبـي دانس)[1] سنة ٣٥٥ هـ = ٩٦٥ م. وهجومهم سنة ٣٥٠ هـ =

(١) قصر أبـي دانس ALCACER DE SAL - ميناء بحري على المحيط الاطلسي جنوب البرتغال (لشبونة) كانت قاعدة رئيسية من القواعد البحرية الاسلامية في الاندلس. (وكان النورمان ينطلقون من بلاد الدانمرك الحالية). وكان ميناء قصر أبي دانس هو القاعدة التي انطلقت منها القوة البحرية لغزو جيليقية (غزوة شنت ياقب)ـ والتي سيرد ذكرها فيما بعد، كما كانت بها دار لصناعة السفن ومقر القيادة البحرية الاسلامية.

٩٧٠م. ولم يكن باستطاعة دولة (قرطبة) أن تعمد لكل هذه التحديات لو لم تكن قد بلغت درجة كبيرة من القوة الذاتية التي ضمنت لها الانتصار في كل الميادين. وكانت قرطبة تعتمد في قوتها على جيشها النظامي الذي يضم المرتزقة والمطوعة والملحقين من المماليك والصقالبة والأسرى وبالاضافة الى ذلك فقد كان لكل مدينة جيشها وفيهم فرسان طنجة وفرسان قرطبة وفرسان الزهراء والعرب والبربر والصقالبة الخ... أما ادارة الدولة فكانت تعتمد على الخليفة يعاونه الحاجب وينفذ اوامره قادة الجيش وقائد الماء (امير البحر) وقد ظهر مما سبق أن ادارة الدولة (كانت بيد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي). أما أبو تمام غالب بن عبد الرحمن- الوزير- فكان من أعظم القادة وأكثرهم كفاءة وليس من الغريب أن يوليه الخليفة الحكم المستنصر ادارة ثغور الشمال وقيادة الحرب فيها. بعدما أظهره من أخلاص للدولة، واندفاع في حمايتها، وحرص على تأمين سلامتها ضد الغزاة والطامعين. وأين كان موقع (الحاجب المنصور) من كل هؤلاء؟...

لقد وصل الى منصب الوزارة «وكانت الوزارة بالاندلس في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك»[1] وهذا يعني ببساطة أن

---

(١) وورد في نفح الطيب ١/٢١٦-٢١٧ ما يلي: «وبقي الأمر كذلك الى ان كانت ملوك الطوائف، فكان الملك منهم لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وانه كان نائباً عن خليفتهم- يسمى بالحاجب، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي=

(الحاجب المنصور) قد وصل في عهد الخليفة الحكم المستنصر الى أقصى ما يمكن أن تحمله مطامحه، فلا هو بقادر على الدخول في منافسة مع (الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي) الذي كان يتمتع بالثقة المطلقة للخليفة، وذو المركز الوطيد في البلاط، ولا هو أيضاً بقادر على منافسة (أبو تمام غالب بن عبد الرحمن) قائد الجيش المظفر في كل معاركه وذو السيفين، إذ أنه لم يكن قد تولى حتى ذلك قيادة أي قوة عسكرية، أو خاض ولو معركة واحدة. ونتيجة لذلك فإنه لم يكن قادراً على ممارسة سيطرة فعلية على الجيش الذي كان يشكل بدوره مركزاً من مراكز القوى التي يمكن لها أن ترفع القائد المظفر إلى مرتبة تزيد على المرتبة التي وصلها وكان لا بد للحاجب المنصور من أن ينتظر الفرصة المؤاتية التي تبرز الاضطراب بين مراكز القوى عندئذٍ قد يكون باستطاعة المنصور المناورة بين هذه المراكز. وهذا بدقة ما أحدثته وفاة الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م. إذ توفي الحكم، وترك وريثه المؤيد هشام وهو طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره إلا قليلاً. فأخذت مراكز القوى في التحرك للمحافظة على مواقعها، وحانت الفرصة أمام المنصور ليبلغ أكثر مما كان يطمع وأكثر مما كان يطمح.

---

= موجودة في امداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزارة عاماً لكل- من يجالس الملوك ويختص بهم. وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين، واكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب. وقد لا يكون كذلك بل عالماً بأمور الملك خاصة».

# ٣ـ السيطرة على مراكز القوى

بلغ الحاجب المنصور الأربعين من عمره يوم توفي الحكم المستنصر في قرطبة. فلقد تجاوز مرحلة اندفاع الشباب، غير أن حماسته للحكم والسيطرة لا زالت في أوج تفتحها. ولقد أوجز المؤرخ (ابن خلدون)[1] قصة وثوب المنصور الى مركز السلطة العليا بما يلي:

«كان الحكم قد استوزر له محمد بن أبـي عامر، ونقله من خطة القضاء إلى وزارته وفوض اليه في أموره، فاستقل وحسنت حاله عند الحكم .فلما توفي الحكم بويع هشام ولقبه المؤيد ـ وكان صغيراً مناهز الحلم ـ وذلك بعد أن قتل ليلتئذ أخو الحكم المرشح لأمره، تناول الفتك به محمد بن عامر هذا بممالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر ورؤسائهم فائق وجؤذر، فقتل محمد بن أبـي عامر المغيرة وبايع لهشام. ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض، . . . . وحجر على هشام المؤيد (الخليفة) وغلب

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ٤ /٣١٨ـ ٣٢١.

عليه، ومنع الوزراء من الوصول اليه إلا في النادر من الأيام، يسلمون وينصرفون. وأرخص للجند في العطاء، وأعلى مراتب العلماء، وقمع أهل البدع. وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه. فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض. كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى أستأصل بهم وفرق جموعهم. وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر الى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة الفازع الى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر. ثم قتل جعفر عماله ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرئاسة رجع الى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة، فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم. فتغلب على هشام وحجره، واستولى على الدولة. وملأ الدنيا وهو في جوف بيته، مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور اليها، وترديد الغزو والجهاد. وقدم رجال البرابرة زناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسماها الزاهرة. ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أن يحيا بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء

له على المنابر، وكتب اسمه في السكة (النقود) والطرز. وعمر ديوانه بما سوى ذلك. وجند البرابرة والمماليك، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول اليها من الغلبة، فظفر من ذلك بما أراد، وردد الغزو بنفسه الى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية، وأجاز عساكره الى العدوة، وضرب بين الملوك البرابرة بعضهم في بعض فاستوثق ملكه بالمغرب، وأذعنت له ملوك زناتة، وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك الى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر لما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه من اعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والتأنف لحجر الخليفة هشام فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين وثلاثمائة للهجرة، ونرل بفاس وملكها، وعقد لملوك زناته على المغرب. وأعماله من سجلماسة وغيرها، وشرد زيري بن عطية الى تاهرت، فأبعد المفر، وهلك في مفره ذلك، ثم قفل عبد الملك الى قرطبة، واستعمل واضحاً على المغرب، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاء».

**تلك هي الأسطر القليلة التي أوجز بها- ابن خلدون- مجموعة كبيرة من الأحداث المثيرة التي بدلت علاقات المجتمع الأندلسي، ودمرت مراكز القوى لتعمل على تكوين مراكز جديدة، غير أن هذه اللوحة الاجمالية لمجموعة الأحداث المتلاحقة تثير من الفضول بأكثر مما تغني المعرفة. فكيف استطاع الحاجب المنصور القضاء على (المصحفي)؟ ثم كيف دمر غالب بن عبد الرحمن أقوى قادة الأندلس؟ وكيف أمكن له فرض ذلك الحجر على الخليفة المؤيد هشام وما هو موقف البشكنسية أم المؤيد من ذلك؟ ولماذا احتفظ محمد بن**

**عبد الله بن عامر المعافري بلقب (الحاجب المنصور) ولم يحاول انتحال لقب الملك أو الخليفة على الرغم من ممارسة اعمالها والاستئثار بظواهر الملك أو الخلافة؟ . تلك هي بعض التساؤلات التي تبرز من خلال لوحة- ابن خلدون- والتي لا يمكن فهم اجراءات الحاجب المنصور فيها بدون التعرض لبعض دقائقها التفصيلية، التي تبرز بدورها- ومن خلالها- شخصية الحاجب.**

**آ- المنصور والمصحفي:**

تشير بعض الأبحاث والدراسات الغربية- وبعض العربية أيضاً- الى ضعف (المصحفي) الأمر الذي أدى الى نجاح المنصور في الوصول الى أهدافه ويستشهدون على ذلك بموقفه من نصارى الشمال يوم هاجموا (قلعة رباح) في إثر وفاة الحكم المستنصر (وهي حادثة سيرد ذكرها بالتفصيل فيها بعد ) غير أنه من المهم هنا القول بأنه من المحال نسب الضعف الى (المصحفي) بناء على موقف واحد. وقد استخدم الحكم المستنصر (المصحفي) كحاجب له طوال فترة حكمه- ستة عشر عاماً- وهو على ما هو موصوف من الضعف؟ وبالاضافة الى ذلك فهنالك مصادر تاريخية تدحض ما نسب الى (المصحفي) من الضعف- وفقاً لما تتضمنه المقولة التالية: «تجرد - المصحفي - للعليا، وتمرد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى، وتسوغ ذلك الجنى ،ووصل الى المنتهى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرع من دوحته، ولا فخر نشأ بين مَغْداه وروحته، فسما دون سابقة. ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع الى مطلع، حتى اتاح في أفق الخلافة، وارتاح اليها بعطفه، كنشوان السُلافة، واستوزره المستنصر، وعنه كان يسمع وبه يبصر، وحجب الإمام، وأسكب

برأيه ذلك الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك، فاقنى اقتناء مدخر، وأزرى بمن سواه وسخر، واستعطفه ابن أبي عامر، ونجمه غائر لم يلح، وسره مكتوم لم يبح فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم، ومن الفتن عقيم وهو يجري من السعد في ميدان رحب ويكرع من العز في مشرب عذب، ويفض ختام السرور، وينهض بملك على لبته مزرور، وكان له أدب بارع، وخاطر الى نظم القريض مسارع»[1] وتبرز هذه المقولة في الواقع نقاط التشابه في تكوين الشخصيَّتين المتنافستين (المنصور والمصحفي). فكلاهما بذل جهد المستطاع للوصول الى أهدافه وكلاهما يتمتع بميزات متشابهة. وليس الغريب بعد ذلك أن يفهم المصحفي منافسه اكثر مما يفهمه الآخرون، وهو لذلك يحاول اعاقته والاعتراض بينه وبين أهدافه، غير أن الحاجب لا يشعر باليأس: «فلم نقصر في خدمة المصحفي الحاجب، إلى أن توفي الحكم وولي ابنه هشام المؤيد فجاشت الروم، فجهز المصحفي ابن أبي عامر لدفاعهم، فنصره الله عليهم وتمكن من قلوب الناس»[2] ويلجأ الحاجب المنصور الى أم هشام- صبح- والحرم من أجل توطيد سلطته لدى الحاجب المصحفي، فيلقى المنصور الاستجابة التي يريدها، ويذكر المقري نقلاً عن ابن بسام في الذخيرة

---

(١) المطمح ٤-٨ وعنه نقل ابن عذارى بعض هذه الترجمة ٢/٣٧٩ وصدرها بقوله: قال ابن بسام. ويذكر ان المصحفي كان شاعراً- ومن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده، وقاله حين الهته سَلْماه وسعاده، وقوله:

لعينيك في قلبي عليَّ عيونُ ... وبين ضُلوعي للشُّجون فُنونُ
نصيبي من الدنيا هواك، وإنه ... غذائي، ولكني عليه ضنين

(٢) (النفح الطيب ١/٣٩٩).

موقف الحرم من بعد وفاة الحكم المستنصر بما يلي: «فأخرجن له أمر هشام الخليفة الى الحاجب المصحفي بأن لا ينفرد عنه برأي، وكان غير متخيل منه سكوناً الى ثقته، فامتثل الأمر، وأطلعه على سره، وبالغ في بره، وبالغ محمد بن أبـي عامر في مخادعته والنصح له، فوصل المصحفي يده بيده، واستراح الى كفايته، وابن أبي عامر يمكر به، ويضرب عليه، ويغري به الحسدة، ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس، ويقضي حوائجهم، وبقي على هذه الحال الى انحل أمر المصحفي، وهوى نجمه، وتفرد محمد بن أبـي عامر بالأمر، ومنع أصحاب الحكم وأجلاهم وأهلكهم وشردهم وشتتهم وصادرهم، وأقام من صنائعهم من استغنى به عنهم، وصادر الصقالبة وأهلكهم وابادهم في أسرع مدة»[1]. لقد أفاد محمد بن أبـي عامر من وجوده في القصر لمعرفة القوى والمراكز المضادة للافادة منها في الوقت المناسب، وكان لا بد للمصحفي بحكم استمراره في ادارة الدولة لمدة طويلة من التصدي لبعض الطامحين فيصيبه منهم العداء والخصومة وهذا ما كان يريده ابن أبـي عامر الذي عمل بصبر وأناة طوال فترة مديدة حتى أمكن له حشد كل القوى المضادة في خندق واحد. وهو ما أكدته المصادر التاريخية والتي يمكن انتقاء مقطع منها جاء فيه ما يلي: «وكان مما أعين به المنصور على المصحفي ميل الوزراء اليه، وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه، فإنها وإن لم تكن حمية أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفي القوم فيها سبيل سلفهم، ويمنعون فيها ابتذال شرفهم. غادروها سيرة، وخلفوها عادة أثيرة، تشاحَّ الخلف فيها تشاحَّ أهل الديانة، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية، ولا يتقاعد لها

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤/٤٠- ٤٤.

راية، فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان المصحفي واصطنعه، ووضعه من أثرته حيث وضعه، وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم، حسدوه وذموه، وخصوه بالمطالبة وعموه. وكان أسرع صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة الى مهاودة المنصور عليه، والانحراف عنه إليه، آل أبي عبيدة، وآل شُهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الردافة، من أولي الشرف والإنافة (أو الأمانة). وكانوا في الوقت أزمة الملك وقوام الخدمة، ومصابيح الأمة، وأغير الخلق على جاه وحرمة، فأحظوا محمد بن أبي عامر مشايعة، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة، وشادوا بناءة، وقادوا إلى عُنصره سناءة، حتى بلغ الأمل، والتف بمناه واكتحل، وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال الحال وانتقال الرتبة، وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناس من الرواح اليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر، فخف موكبه، وغار من سماء العز كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها، حتى محاه، وهتك ظله وأضحاه، وقال- محمد بن اسماعيل- رأيته يساق الى مجلس الوزراة للمحاسبة راجلاً فأقبل يدرم، وجوارحه باللواعج تضطرم (وواثق الضاغط ينهره)[1] والزمع يقهره، والبهر والسن قد هاضاه، وقصرا خطاه، فسمعته يقول رفقاً بي فستدرك ما تحبه وتشتهيه، وترى ما كنت ترتجيه، ويا ليت أن الموت يباع، فأغلي سومه، حتى يرده من أطال عليه حَوْمُهْ، ثم قال:

---

(١) واثق اسم رئيس الحرس المرافق للمصحفي والمكلف بازعاجه حتى وصفه المصدر بالضاغط.

لا تـأمننَّ من الزمـان تقلبـاً إنَّ الــزمــان بــأهله يتقلبُ
ولقـد أراني والليوث تخـافني فأخافني من بعد ذاك الثعلبُ
حسْبُ الكريم مذلة ومهانـةً أن لا يزال إلى لئيم يطلبُ

فلما بلغ المجلس، جلس في آخره دون أن يسلم على أحد، أو يومىء إليه بعين أو يد. فلما اخذ مجلسه تسرع الوزير محمد بن حفـص بن جابر، فعنفه واستجفاه، وأنكر عليه ترك السلام وجفاه، وجعفر معرض عنه، إلى أن كثر القول منه، فقال له: يا هذا! جهلت المبرة فاستجهلت معلمها، وكفرت النعم فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدمِّها، ولو أتيتُ نكراً، لكان غيرك أدرى، وقد وقعت في أمر ما أظنك تخلص منه، ولا يَسَعُكَ السكوت عنه، ونسيت الأيادي الجميلة، والمبرات الجليلة. فلما سمع محمد بن حفـص ذلك من قوله، قال: هذا البهت بعينه، وأي أياديك الغر التي مننت بها وَعَيْنْتَ أداء واجبها؟ وعدد أشياء أنكرها منه أيام إمارته، وتصرف الدهر طوع إشارته، فقال جعفر: هذا ما لا يعرف، والحق الذي لا يرد ولا يصرف، دفعي القطع عن يمناك، وتبليغي لك إلى مناك. فأصر الوزير محمد بن حفـص على الجحد. فقال جعفر: أنشد الله من له علم بما أذكره، الا اعترف به فلا ينكره، وأنا أحوج إلى السكوت، ولا تحجب دعوتـي فيه عن الملكوت. فقال الوزير أحمد بن عباس: قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن، وغير هذا أولى بك، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك. فقال: أحرجني الرجل فتكلمت، وأحوجني إلى ما به أعلمت. فأقبل الوزير ابن جهور على محمد بن حفـص وقال: أسأت الى الحاجب، وأوجبت عليه غير الواجب، أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى:

«وإذا حُيِّيتُم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردُّوها»[1] فإن فعلوا لطاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويُخاف، لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف، وإن تركوا الرد أسخطوا الله، فصار الإمساك أحسن ومثل هذا لا يخفى على أبـي الحسن. فانكسر ابن حفص، وخجل مما أتى به من النقض»[2] وهكذا سلط محمد بن ابـي عامر على المصحفي من يحقد عليه وينتقم منه، وصار المصحفي للهموم لبيساً، وفي غيابات السجن حبيساً، فكتب لابن أبـي عامر- المنصور- يستعطفه بقوله: [3]

**هبني أسأت فأين العَفْوُ والكَرَمُ**
**إذ قادنـي نحوك الإذعان والندم**

**يا خير من مدت الأيدي إليه أما**
**ترثي لشيخ رماه عندك القلم**

**بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر**
**إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا**

فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً، وما أفادته الأبيات إلا تضرماً ووقداً، فراجعه بما أيأسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محسبه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه، وكتب له ما يلي:

---

(١) سورة النساء الآية ٨٦.

(٢) نفح الطيب ١/٤٢٠- ٤٢٣ وفيه أن المصحفي علم وهو في معتقله أن قوماً توجعوا له، وتفجعوا مما وصله، فكتب اليهم:

أحن إلى أنفاسكمْ فأظنها ... بواعث أنفاس الحياة الى نفسي

وإن زماناً صرت فيه مُقيداً ... لأثقل من رضوي وأضيق من رمسي

(٣) نفح الطيب ١/ ٤٠٧- ٤٠٨.

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم

تبغي التكرم لما فاتك الكَرَمُ

أغريت بـي ملكاً لـولا تثبتُه

ما جاز لي عنده نطق ولا كلمُ

فا يأس من العيش إذ قد صرت في طبق

إن الملوك اذا ما استنقموا نقموا

نفسي إذا سَخِطت ليست براضية

ولو تشفع فيكَ العربُ والعجم

لم يتوقف محمد بن ابـي عامر عند حدود انزال العقاب بخصمه المصحفي، وإنما تجاوزه لإنزال العقاب بأولاده وأهله وأسبابـه وأصحابه، وطولبوا بالأموال، وأخذوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه، وتوصل ابن أبـي عامر بذلك الى اجتثاث أصولهم وفروعهم. وكان هشام ابن أخـي المصحفي قد توصل الى أن سرق من رؤوس النصارى التي كانت تحمل بين يدي ابن أبـي عامر في الغزاة الثالثة ليقدم بها على الحضرة، وغاظه ذلك منه، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمه جعفر المصحفي، واستقصى ابن أبـي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة، وكانت أعظم قصور قرطبة، واستمرت النكبة عليه سنين، مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يقر بالحضرة ومرة يُنَفَرُ عنها، ولا براح له من المطالبة بالمال. ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي ولم يبق فيه محتمل، واعتقل في المطبق بالزهراء الى أن هلك[1] وأخرج إلى

(١) نفح الطيب ٣/٩٠- ٩٢ وفي حاشيته ما يلي: «كذا في الذخيرة، وجعله دوزي (سنتين) وهو مستدرك في التعليقات لأن المصحفي أقام في الاذلال والتعذيب خمس سنين».

أهله ميتاً، وذكر أنه سَمَّهُ في ماء شربه. ووصف محمد بن اسماعيل ـ كاتب الحاجب المنصور نهاية المصحفي بما يلي: «سرت بأمر ـ المنصور لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، والحضور على انزاله في ملحده، فنظرته ولا أثر فيه، وليس عليه شيء يواريه، غير كساء خلق لبعض البوابين، وَدعا له محمد بن مسلمة بغاسل، فغسله والله على فردة باب اقتطع من جانب الدار. وأنا أعتبر من تصرف الأقدار، وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، وما تجاسر أحدٌ منا للنظر إليه، وإن لي في شأنه لخبراً ما سمع بمثله طالب وعظ، ولا وقع في سمع ولا تصور في لحظ: وقفت له في طريقه من قصره أيام نهيه وأمره، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه، وكثرة من صف به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق، ومارين بين يديه وساعين، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصَبَهم جناحي موكبه لأخذ القصص. فانصرفت وفي نفسي ما فيها من الشرق بحاله والغصص. فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله، ونقله معه في الغزوات واحتمله، واتفق أن نزلت بجيليقية إلى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصور عن وقود النار ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف اليها خبره، فرأيت والله عثمان ولده وهو يسقيه (أو يسفه) دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أوده ويمسك بسببه رمقه، بضعف حال وعدم زاد، وهو يقول:

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل ... أراها تُوفي عند موعدها الحرا
فلله أيــام مضت بسبيلهــا ... فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا
تجافت بها عنا الحوادث برهة ... وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالي ما يدري الزمان مكاننا ... ولا نظرت منها حوادثه شزرا

وما هذه الأيـام الا سحائب    على كل أرض تمطر الخير والشرا

مات المصحفي، وزالت بموته أكبر عقبة في طريق الحاجب المنصور، وقد كانت نهايته قاسية ومفجعة ومثيرة، فما هو السبب الذي دفع الحاجب المنصور لممارسة مثل هذه القسوة الوحشية في القضاء على خصمه؟ أتراها المعاناة المريرة على طريق المجد والتي تعرض لها الحاجب المنصور فجعلته يفجر كل موارد غضبه وحقده ضد هذا الذي اعترض سبيله في بداية أمره؟ أم هو الأمثولة التي أراد المنصور استخدامها لارهاب كل من يحاول اعتراض سبيله؟ أم هو الخوف من ردة تحمل المصحفي إلى السلطة فتجعله ينتقم من هذا الذي أنزل به البـلاء؟ قد تكون كلها، وغيرها أيضاً، على أن هذه القصة لم تكما بعد.

قال بعض مؤرخي المغرب: «إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله، حتى أنه كتب إلى المنصور ابن أبـي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلمًا لأولاده. فقال المنصور بدهائه وحذقه: إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس، لأنهم طالما رأونـي بدهليزه خادماً ومعلمًا فكيف يرونه الآن في دهليزي معلمًا؟![1]».

وهذا ما حمل المصحفي على القول:

غرست قضيباً خلته عود كرمة    وكنت عليه في الحوادث قيمًا
وأكرمه دهـري فيزداد خبثه    ولو كان من أصل كريم تكرما

ولما يئس المصحفي من عفو المنصور قال:

لي مـدة لا بـد أبـلغـهـا    فـاذا انقضت أيـامهـا مت

---

(١) ابن عذارى ٢/٣٩٩ـ ٤٠٠ ونفح الطيب ١/٦٠٢ـ ٦٠٤ والذخيرة ٤/٥١ـ٥٢.

لـو قـابلتني الأسـد ضـاريـة والموت لم يقرب لما خفت
فـانظر إلي وكن عـلى حـذر في مثل حالك أمس قد كنت

ومن ما نعى به نفسه قوله:

صرت على الايام حين تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فواعجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتـي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم وَلت

قد تثير هذه النهاية التي انتهى اليها المصحفي مختلف المشاعر المضادة للحاجب المنصور، إذ أن أقل ما تبرزه المقولات السابقة هي الغدر بولي نعمته وعدم الرحمة والشفقة بمن أزرى به الدهر. ولكن كيف استطاع الحاجب المنصور انزال المصحفي عن مركز قوته؟. تلك قصة تبرز من خلال مواقف المنصور مع بقية المنافسين وأولهم (غالب الناصري) الذي كان أقوى قادة الأندلس.

ب- المنصور وغالب:

«كان بين المصحفي وغالب صاحب مدينة سالم (حاكمها) وشيخ الموالي وفارس الأندلس، عداوة عظيمة، ومباينة شديدة، ومقاطعة مستحكمة، وأعجز المصحفي أمره، وضعف عن مباراته، وشكا ذلك الى الوزراء فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه، وشعر بذلك ابن أبي عامر، فأقبل على خدمته وتجرد لإتمام إرادته، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمة جيش الثغر، وخرج ابن أبي عامر الى غزوته الثانية، واجتمع به، وتعاقدا على الايقاع بالمصحفي. وقفل ابن أبـي عامر ظافراً غانماً، وبعد صيته، فخرج أمر

الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة، وكانت في يده يومئذ، وخلع على ابن أبـي عامر، ولا خبر المصحفي وملك ابن ابي عامر الباب بولايته للشرطة، واخذ على المصحفي وجوه الحيلة، وخلاه وليس بيده من الأمر إلا أقله، وكان ذلك بإعانة غالب له، وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة أولي السياسة، وانهمك ابن أبـي عامر في صحبة غالب، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبـي عامر عليه، فكاتب غالباً يستصلحه. وخطب أسماء بنته لابنه عثمان، فأجابه غالب لذلك، وكادت المصاهرة تتم له، وبلغ ابن عامر الأمر، فقامت قيامته، وكاتب غالباً يخوفه الحيلة ويهيج حقوده، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك، ورجع غالب الى ابن أبـي عامر، فأنكحه البنت المذكورة، وتم له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلاثمائة. فأدخل السلطان تلك الابنة الى قصره، وكثر رجاله، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلاشيء واستقدم السلطان غالباً. وقلده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي. ودخل ابن عامر على ابنته ليلة النيروز، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس، وأيقن المصحفي بالنكبة وكف عن اعتراض ابن أبـي عامر في شيء من التدبير، وابن أبـي عامر يساتره ولا يظاهره، وانفض عنه الناس، وأقبلوا على ابن أبـي عامر، إلى أن صار المصحفي يغدو الى قصر قرطبة ويروح وهو وحده وليس بيده من الحجابة سوى اسمها»[1].

لقد كان غالب الناصري أموي النزعة، مخلصاً للشرعية، وقد عرف السؤدد والمجد من خلال الثقة التي منحها اياه الحكم المستنصر خلال فترة تعيينه اميراً على مدينة سالم، ولهذا فانه لم يلبث أن أدرك

(١) نفح الطيب: ٣/ ٨٨- ٨٩ و٩٢.

مطامع زوج ابنته ـ العامري ـ في الحكم والسيطرة، وذكرت المصادر التاريخية ما حدث بعد ذلك بين الرجلين بما يلي: «حضر غالب الناصري مع ابن أبـي عامر في بعض الغزوات، وصعد إلى بعض القلاع، لينظرا في أمرها. فجرت محاورة بين ابن عامر وغالب، فسبه غالب. وقال له: يا كلب، أنت الذي أفسدت الدولة، وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة، وسل سيفه فضربه، وكان بعض الناس حبس يده، فلم تتم الضربة وشجه، فألقى ابن عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يجهز عليه، فقضى الله تعالى أنه وجد شيئاً في الهويِّ منعه من الهلاك، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برىء. ولحق غالب بالنصارى فجيش بهم، وقابله ابن أبـي عامر بمن معه من جيوش الاسلام. فحكمت الأقدار بهلاك غالب، وتم لابن أبـي عامر ما جد له، وتخلصت دولته من الشوائب».

ج- المنصور وصبح والمؤيد:

ما أكثر ما تثور الشبهات عندما تكون هناك علاقة خاصة بين رجل وامرأة، بصرف النظر عمن يكون ذلك الرجل أو من تكون تلك المرأة، ومن الطبيعي أن تتزايد الشبهات في المجتمعات المغلقة، أو في الأوساط المستهدفة لمراقبة الناس. ولهذا فقد أشار كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين لتلك العلاقة التي كانت تربط بين السيدة صبح البشكنسية والحاجب المنصور. وقد سبقت الإشارة الى ما قدمته السيدة صبح أم هشام المؤيد من خدمات في رفع مكانة الحاجب المنصور، بقدر ما أبرز العرض السابق أيضاً ما قدمه الحاجب المنصور من خدمات للسيدة الاولى في قصر قرطبة. غير أن تحليل مسيرة الأحداث وتحليل السيرة الشخصية للحاجب المنصور يؤكد أن تلك

العلاقة لم تكن لتتجاوز حدود المصالح المتبادلة. فقد كان الحاجب المنصور يريد الامساك بمفتاح القصر للوصول الى أهدافه، كمرحلة للسيطرة على هذا القصر، وبالمقابل، كانت السيدة صبح في حاجة لمن يدير أمورها الخاصة ـ ككاتب ومحاسب ـ في عهد زوجها الحكم المستنصر، بقدر ما أصبحت في حاجة لرجل دولة يضمن لها ادارة الشؤون العامة بعد وفاة زوجها، وظنت السيدة صبح أنها تستطيع الاعتماد في ذلك على الحاجب المنصبور بفضل ما عرفته فيه من فضائل أبرزها ـ انه الرجل القوي الأمين ـ من هنا، فقد كان من غير المتوقع أن تكون هناك ثمة علاقة غير طبيعية تربط بين (الرجل والمرأة) وهذا ما أشار اليه مصدر تاريخي بقوله: «عندما توفي الحكم المستنصر كان هشام المؤيد صغيراً، وأمه صبح البشكنسية كان يتهمون بها المنصور وذلك بهتان وزور»[1]. وكان من المتوقع أن يتوجس المنصور خيفة من مؤامرات القصر بعدما عرفه من قدرة هذا القصر على اجتذاب مراكز القوى المضادة، ولهذا كان أول ما فعله هو التضييق على القصر وعلى سيدة القصر مما أثار غضب السيدة صبح، وهو ما أورده مصدر تاريخي بما يلي: «ولما وقعت وحشة بين ابن أبـي عامر والمؤيد، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما، وعلم أنه ما دهي إلا من جانب حاشية القصر، ففرقهم ومزقهم، ولم يدع فيه منهم إلا من وثق به أو عجز عنه، ثم ذكر له أن الحرم قد انبسطت أيديهن في الأموال المختزنة بالقصر، وما كانت السيدة صبح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبـي عامر، وأنها أخرجت في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة، [illegible] ذلك كله بالمربى والشهد وغيره والأصباغ المتخذة

(١) نفح الطيب ١ / ٦٠٣.

بقصر الخلافة، وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك، ومرت على صاحب المدينة، فما شك في أنه ليس فيها إلا ما هو عليها، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار، فأحضر ابن أبـي عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه في العبادة، وأن في إضاعتها آفة على المسلمين، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه. فحمل منها خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبعمائة ألف دينار، وكانت صبح قد دافعت عما بالقصر من الأموال، ولم تتمكن من إخراجها ، فاجتمع ابن أبـي عامر بالخليفة هشام، واعترف له بالفضل والفناء في حفظ قواعد الدولة، فخرست ألسنة الأعداء والحسدة». أما بالنسبة لهشام المؤيد، فقد حجر عليه الحاجب المنصور، وعزله، وفرض عليه رقابة صارمة، وهو ما تبرزه المقولة التاريخية التالية: «حجر المنصور بن أبـي عامر على هشام المؤيد، بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً، وعلى جواريه مثل ذلك، فلا يُعرف منهن، ويأمر من ينحي الناس من طريقه، حتى ينتهي المؤيد الى مواضع تنزهه، ثم يعود. غير أنه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرض له. وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن يثوروا به، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، ثم فرق باقيهم في البلاد، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد، وربما سكن بعضهم البادية، وترك مجلس الأبهة وناديه، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة له:

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم؟ وأين نجومها والكواكب؟
غابت أسودُ منكم عن غابها فلذاك حازَ الملكَ هذا الثعلب»[1]

ويذكر في موضوع هشام المؤيد أن المصادر التاريخية (الاندلسية) تشير في أكثر من مناسبة الى ما عرف عن هشام المؤيد من قصور عقلي، ومن المحتمل أن تكون العزلة القاتلة التي فرضها الحاجب المنصور على الصبي الذي لم يكد يبلغ الحلم قد أدت لمثل هذا القصور، ومن المحتمل أيضاً أن يكون لدى الصبي نوع من القصور جاءت العزلة لتزيد من تفاقمه. ومن ذلك ما ذكر عن هشام من أنه: «لهج بطلب ذوي الأسماء الغريبة من الناس مثل: عبد النور وعبد السميع وحزب الله ونصر الله، يصير الرجل من هؤلاء في الحاشية، ويستعمل على وكالة جهة، ولا يبعد أن يتولى في أقرب مدة، وإن اتفق أن يكون مع ذلك ذا لحية عظيمة، وهامة ضخمة، تقدمت به السعادة، ولا سيما إن كانت لحيته حمراء قانية، فإنها أجدى عليه من دار البطيخ غَلَةً، ثم لا يسأل عما وراء ذلك من أصل وفضيلة، ولو كان مردداً في بني اللختاء ترديداً» وذكر أيضاً: «نشأ المؤيد هشام وهو جامد الحركة، أخرس الشمائل، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار في صورة آدمي، وعشق في صباه نباح كلب، فجعل الغلمان يهيجونه

(١) نفح الطيب ١/ ٥٩١ وفي المغرب في حلى المغرب ١/ ١٩٦. «مرض- الحاجب المنصور- وأرجف أعداؤه به، ولما أفاق، وصل الى الخليفة هشام، واجتمع به، واعترف له بالاضطلاع بالدولة، فخرست ألسنة الحسدة، وعلم ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيته، إذ كان منهم من لم يره قط. فأبرزه وركب ركبته المشهورة، وقد برزوا له في خلق عظيم لا يحصيهم إلا رازقهم، معمماً على الطويلة، سادلاً للذؤابة، والقضيب في يده، على زي الخلافة، وإلى جانبه المنصور راكباً يسايره، وعبد الملك بن المنصور راجلاً يمشي بين يديه، ويسير الجيش أمامه».

حتى ينبح ليلتذ بذلك. وكلما زاد سناً نقص عقلاً. ولما خلعه المهدي[1] وحصل في قبضته، قال لأحد غلمانه وقد ذهب دولته وهتك حرمه: بالله انظر هدهدي إن كان سليمًا، وافتقده لئلا يهلك بالجوع والعطش فإنه من ذرية الهدهد الذي دل سليمان على عرش بلقيس. قال المأمور بهذا: فكدت والله أخنقه، فيستريح ويستراح منه» وذكر أيضاً: «كانت صبح أم المؤيد هي التي أظهرت المنصور بن أبـي عامر، ويقال أنها أرضعته، ولهذا كان يقال له (ظئر هشام) فلما تغلب ولم تَرْعَ صبحاً قالت لابنها المؤيد: أما ترى ما يصنع هذا الكلب؟ فقال: دعيه ينبح لنا ولا ينبح علينا» ومما اوردته المصادر التاريخية القصة التالية: «ومن تخلف ـ المؤيد هشام، أنه رام الصعود الى برج يتفرج فيه، فنزل في دهليز تحت الأرض، فلما طال عليه النزول، وأظلم المكان، قال للذي معه: يا إنسان، أين أعلى البرج؟! قال: فقلت: يا مولاي، ليس هذا بابه، وانما هذا باب الدهليز الذي تحت الأرض. قال: صدقت. وإلا لو كان باب البرج، كان يكون فيه خابية الماء! وانما جعل الخابية شرطاً لأنه كان له برج يعتاد صعوده، وفي بابه خابية». وعندما بلغت الحاجب المنصور مثل هذه التصرفات قال: «**أتعلم أن في هذا الذي أنكرته صلاح المسلمين؟! وذلك أن السلطان الذي تصلح معه الرعية اثنان: إما سلطان قاهر ذو رأي، عارف بما يأتي ويذر، مستبد بنفسه، وإما سلطان مثل هذا تدبر الدنيا باسمه، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه غائله، والتوسط يهلك ويهلك**»[2]. ومن المحتمل بعد ذلك أن يكون المؤيد هشام (قاصراً

---

(١) ولي المهدي الخلافة في سنة ٣٩٩ وبقي بها ستة عشر شهرا حتى قتله العبيد مع واضح الصقلبي وتولى بعده المستعين سليمان بن الحكم. واسم المهدي هو: محمد بن هشام بن عبد الجبار بـن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء.

(٢) المغرب في حلى المغرب (١ /١٨٨- ١٩٣)

عقلياً). ومن المحتمل أيضاً أن تكون العزلة قد فرضت عليه ذلك القصور، غير أن الأمر الثابت هو أن الحاجب المنصور قد أفاد من مجموعة الظروف ووجهها لمصلحته، فقد كان هناك احتمال منذ البداية استبدال هشام المؤيد بالمغيرة شقيق الحكم المستنصر. غير أن رجال البلاط تآمروا ضد المغيرة، وقرروا قتله، ونفذ الحاجب المنصور المؤامرة، ثم قام بتقاضي الثمن من أطراف المؤامرة، وتصفيتهم تباعاً.

**د ـ المنصور والخلافة:**

لقد كان للخلافة الاموية هيبتها الشرعية، غير أن هذه الهيبة بقيت مرتبطة الى حد بعيد بقوة شخصية الخلفاء الامويين وكفاءتهم القيادية، كما كان للشرعية في حد ذاتها قيمة معنوية لا يستهان بها، وهذا هو بدقة ما دفع الحاجب المنصور للاحتفاظ بهشام المؤيد مع حجزه وتجريده من كل سلطة مادية، وهذا أيضاً سبب عدم انتحال المنصور للقب الخلافة والاكتفاء بلقب الحاجب المنصور. غير أن رجال البلاط مارسوا دوراً غير نظيف عند وفاة الحكم المستنصر، وكان هذا الدور بالنسبة للمنصور هو حجر المرتقى لتصفية كل الحاشية. وقد أورد مصدر تاريخي قصة هذا الدور بما يلي: «لما انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحكم المستنصر ـ تاسع الائمة. وكان مع فضله قد استهواه الولد حتى خالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا دون مشيخة الاخوة وفتيان العشيرة، ومن كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك. وكان يقال: «لا يزال ملك بني أمية بالاندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء، فاذا انتقل إلى الاخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم» ولعل الحكم لحظ ذلك، فلما مات الحكم أخفى جؤذر وفائق فتياه ذلك. وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة. وكان

فـائق قـد قـال لـه: إن هـذا لا يتم لنـا إلا بقتـل جعفر المصحفي فقال له جوذر: ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا؟ فقال له: هو والله ما أقول لك. ثم بعثا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم، وعرفاه رأيهما في المغيرة، فقال لهما المصحفي: وهل أنا إلا تبع لكما. وأنتما صاحبا القصر، ومدبرا الأمر، فشرعا في تدبير ما عزما عليه، وخرج المصحفي وجمع اجناده وقواده ونعى اليهم الحكم وعرفهم مقصد جؤذر وفائق في المغيرة، وقال: إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا، وإن بدلنا استبدل بنا، فقالوا: الرأي رأيك، فبادر المصحفي بإنفاذ محمد بن أبـي عامر مع طائفة من الجند الى دار المغيرة لقتله، فوافاه ولا خبر عنده، فنعى اليه الحكم أخاه، فجزع، وعرفه جلوس ابنه هشام في الخلافة، فقال: أنا سامع مطيع، فكتب الى المصحفي بحاله، وما هو عليه من الاستجابة فأجابه المصحفي بالقبض عليه، وإلا وجه غيره لقتله، فقتله خنقاً. فلما قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام بن الحكم، افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطِّراح الكبر، ومساواة الوزراء في الفرش، وكان ذلك من أول ما استحسن منه، وتوفر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال، وعارضه محمد بن أبـي عامر- فتى ماجدٌ أخذ معه بطرفي نقيض بالبخل جوداً وبالاستبداد أثرة، وتملك قلوب الرجال إلى أن تحركت همته للمشاركة في التدبير بحق الوزارة». وهكذا انتصر المصحفي على (فائق وجؤذر) وقتل المغيرة، وأبقى المؤيد هشام على الخلافة، وكان يأمل من ذلك فرض وصايته على الفتى الشاب (الخليفة هشام المؤيد). غير أن الحاجب المنصور وجه هذا الحدث لمصلحته، وكان أول ما فعله هو تحريض المصحفي للقضاء على فتيان القصر- الصقالبة- الذين كان يقودهم فائق وجؤذر. فتم القضاء عليهم،

وبذلك زال مركز القوة الرئيسي. وكان باستطاعة المنصور في بداية الأمر استثمار مقتل المغيرة للتحريض ضد المصحفي واضعاف مركزه- على الرغم من أنه هو الذي نفذ جريمة القتل خنقاً. وفي الوقت ذاته، استثمار ضعف المصحفي في مواجهة الخطر الخارجي لتدعيم مركزه، وممارسة دور قيادي عسكري طالما طمح لممارسته. وهو ما تعرضت له المصادر التاريخية بما يلي: «جاشت النصرانية بموت الحكم، وخرجوا على أهل الثغور، فجاء صراخهم الى باب قرطبة، ولم يجدوا عند المصحفي غناء ولا نصرة، وكان مما أتى عليه أن أقر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم لما تخيله من أن في ذلك النجاة من العدو، ولم تتسع حيلته لأكثر منه، مع وفور الجيوش وجموم الأموال، وكان ذلك من سقطات جعفر، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدنية، وأشار على جعفر بتجريد الجيش بالجهاد، وخوفه سوء العاقبة في تركه، وأجمع الوزراء على ذلك، إلا من شذ منهم، واختار ابن أبي عامر الرجال وتجهز للغزاة، واستصحب مائة ألف دينار، ونفذ بالجيش، ودخل على الثغر الجوفي - الى جيليقية- ونازل حصن الحامّة، ودخل الربض، وغنم وقفل، فوصل الحضرة- قرطبة- بالسبي بعد اثنين وخمسين يوماً. فعظم السرور به. وخلصت قلوب الأجناد له. واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه»[1] **ترى هل كانت لعنة دم (المغيرة) المغدور هي التي نزلت على رؤوس كل اولئك الذين اشتركوا في اهداره مما ساعد المنصور على الانتقام منهم، ثم جاءت يد القدر لتنتقم من ورثته؟..**

---

(١) نفح الطيب ٣ / ٨٦ و ٨٧ و٨٨

# ٤ـ نقل المقر من الزهراء الى الزاهرة

يظهر أنه كان من الصعب على (الحاجب المنصور) أن يعود الى (القصر) الذي عمل فيه كاتباً ومعلمًا وشهد فيه الهوان بالمقارنة لما عرفه بعد ذلك من العزة والقوة. أو لعله أراد الابتعاد عن مركز القوة واقامة مركز جديد يتناسب مع التطورات التي أدخلها الحاجب المنصور للسلطة. ولهذا فلم تمض أكثر من سنة واحدة على وفاة الحكم المستنصر، وما أن شعر بأن قبضته أصبحت قوية على أجهزة الحكم، حتى أصدر أوامره ببناء (الزاهرة) لينافس بها (الزهراء). وقد أوردت المصادر التاريخية قصة بناء الزاهرة بما يلي: «وابتنى ـ المنصور ـ لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة. ونقل اليها جزءاً من الأموال والاسلحة»[1]. «وقيل أيضاً أنه في سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبـي عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره واتقد جمره، وظهر استبداده، وكثر حُساده وأنداده، وخاف على نفسه في الدخول الى قصر السلطان. وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه

---

(١) ابن خلدون ٤/١٤٨.

وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ، ويحله بأهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة ، وحشد الصناع والفعلة ، وجلب إليها الآلات الجليلة ، وسربلها بهاء يرد الأعين كليلة ، وتوسع في اختطاطها ، وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ،وبالغ في رفع أسوارها وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها . فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ، وصار بناؤ ها من الأنباء الغريبة ، وبنى معظمها في عامين . وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال ، وعمل في داخلها الأهراء وأطلق بساحتها الأرحاء . ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت فيها الأرفاق . وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ،وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة ، واستقرت في بحبوحتها الإمارة ، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي ، وصير ذلك هو الرسم العافي ، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤ وس أمرائه ، وندب اليها كل ذي خطة بخطته ، ونصب ببابها كرسي شرطته ، وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخليفة ، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها

طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها الى باب الخليفة عائج. فاقتضيت إليها اللبانات والأوطار وانحشد الناس اليها من جميع الأقطار، وتم لابن عامر ما أراد، وانتظم بِلَبَّةِ أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجّد في خبر لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهي والأمر، ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحراس والبوابين، والسمار والمنتابين يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً، ويراقبون حركاتهم سراً وجهاراً، وقد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، معجوز الغناء، خفي الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام. ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه إنعام، ولا يعهد فيه الا الاسم السلطاني في السكة والدعوة، وقد نسخه ولبس أبهته وطمس بهجته، وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أن لا يذكرونه، واشتد ملك محمد ابن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الأيام في تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال، نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء رقَ أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان»[1] . ويظهر هذا النص في كثير من فقراته ارتباط بناء الزاهرة بعملية التحولات الجديدة. وأبرزها التأكيد على نقل السلطة عن (القصر الأموي) وقد يكون من المثير بعد ذلك الإشارة الى أن المنصور ذاته كان يعرف ـ أو يدرك ـ بأن مايفعله هو اقامة بناء لا جذور له، وأن هذا البناء سينهار عند أول عاصفة نظراً

(١) ابن عذارى ٢ / ٤١٠ـ ٤١٥

لافتقاره للشرعية، وهذا يعني أنه على الرغم من كل ما قام به المنصور فقد بقيت (الشرعية الأموية) ثابتة الجذور ولو أن هذه الجذور بقيت ضعيفة نتيجة كل ما تعرضت له، وقد يكون من المناسب الإشارة الى النص التاريخي الذي يشير الى ذلك: «حكي عن المنصور أنه كان في قصره بالزاهرة، فتأمل محاسنه، ونظر الى مياهه المطردة، وأنصت لأطياره المغردة، وملأ عينه من الذي حواه من حسن الجمال، والتفت في الزاهرة من اليمين الى الشمال، فانحدرت دموعه، وتجهم وقال: ويهاً لك يا زاهرة، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب؟ فقال له بعض خاصته: ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال: والله لترون ما قلت، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت، وبرسومها قد غيرت، وبمبانيها قد هدمت ونحيت، وبخزائنها قد نهبت، وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة والهبت. قال الحاكي: فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى المظفر ولم تطل مدته فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول. فقام عليه المهدي والعامة، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة، وانقرضت دولة آل عامر، ولم يبق منهم آمر، وضربت الزاهرة، وذهبت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر، والسلاح، وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً، وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا» وقد يكون من الطريف والممتع بعد ذلك اكمال قصة الزاهرة بما يلي: «يروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها، ونظر الى مصانعها السامية الفائقة، ومبانيها العالية الرائقة، فقال: (يا دار فيك من كل دار، فجعل الله منك في كل دار) قال الراوي: فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام

يسيرة حتى نهبت ذخائرها، وعمَّ الخراب سائرها، فلم تبق دار في الأندلس إلا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي همته مع ربه جليلة، ولقد حكي أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية»[1]. ولقد تعرضت الأوابد الأندلسية كثيراً للزاهرة وما ضمته، وللشعراء وما قالوه فيها وبسيدها الحاجب المنصور مما لا مجال هنا لذكره، غير أنه بالامكان الإشارة الى بعض ما قيل ، ومنه:

| | |
|---|---|
| يا أيها الملكُ المنصور من يمن | والمبتني نسباً غير الذي انتسبا |
| بغزوة في قلوب الشرك رائعة | بين المنايا تناغي السمر والقضبا |
| أما ترى العين تجري فوق مرمرها | هوى فتُجري على أحفافها الطربا |
| أجريتها فطمى الزاهي بجريتها | كما طموت فسدت العجم والعربا |
| تخال فيه جنود الماء رافلة | مستلئمات تريك الدرع واليلبا |
| تحفها من فنون الأيك زاهرة | قد أورقت فضة إذ أثمرت ذهبا |

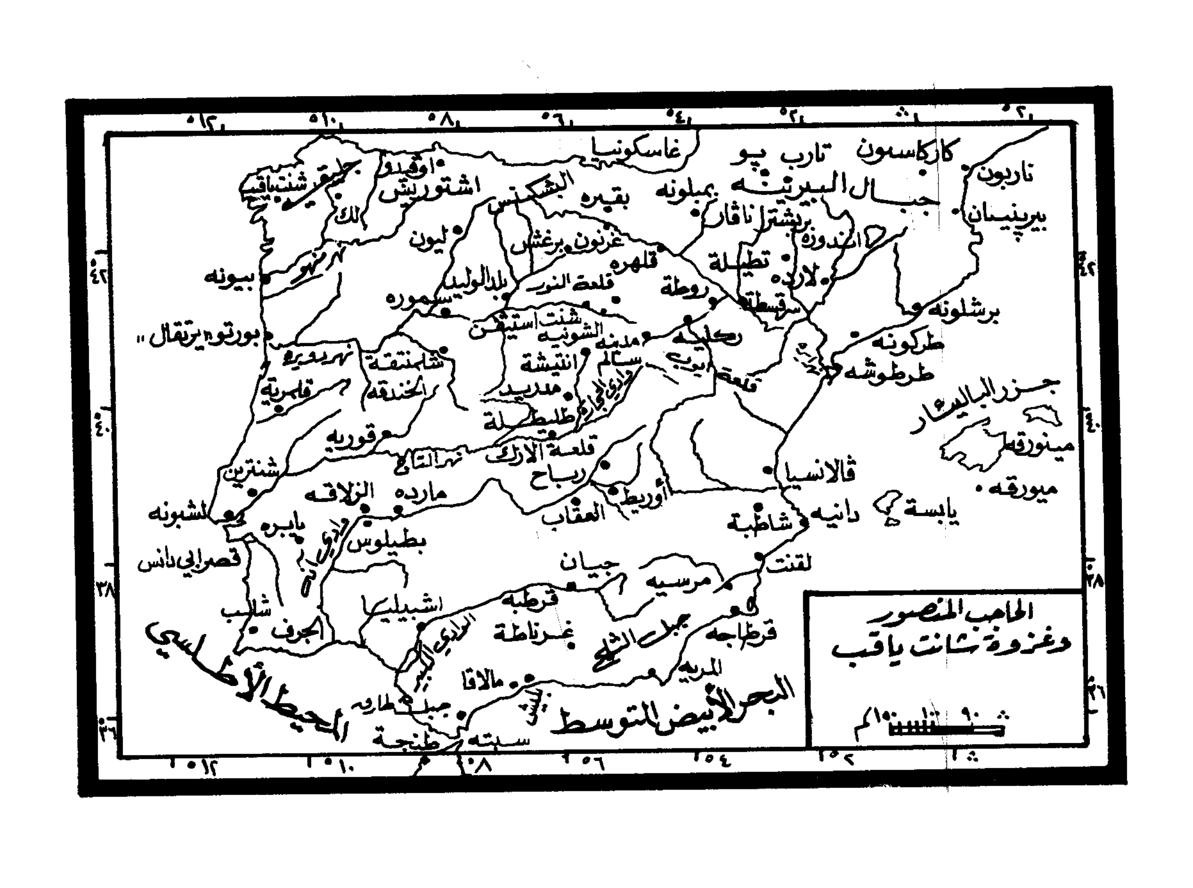
(١) نفح الطيب ١ / ٥٧٨- ٥٨١ و٩٥٠.



## الفَصْل الثّاني

# حروب الحاجب المنصور

١ـ ادارة الحرب والدولة.
٢ـ غزوات المنصور في الشمال.
٣ـ الضربات الاجهاضية المسبقة.
٤ـ غزوة (شنت ياقب).
٥ـ المنصور وبناء مجتمع السلم والحرب.


الحاجب المنصور
وغزوة شانت ياقب
غاسكونيا
كاركاسون
تارب
پو
تاربون
جبال البيرينيه
بمبلونه
بقيره
البشكنس
اشتوريش
اوفيدو
شنت ياقب
لك
ليون
غرنون
برغش
بيرپنيان
بربشتر
نافار
تطيلة
لارده
قلهره
روطة
برشلونه
طركونه
طرطوشه
سرقسطة
بلد الوليد
سموره
بيونه
بورتو برتقال
قلعة النسور
شنت استيفن
الشونيه
مدينه سالم
قلعة ايوب
انتيشة
مجريط
طليطلة
قلمرية
الخندقة
شلمنقة
قوريه
نهر التاجه
قلعة الارك
جزر البالبار
مينورقه
ميورقه
يابسة
ثالانسيا
رباح
اوريط
العقاب
دانيه
شاطبة
لقنت
شنترين
ماردة
الزلاقه
الشبونه
يابره
بطليوس
قصر ابي دانس
جيان
مرسيه
قرطبة
اشبيليا
غرناطة
جبال الثلج
قرطاجنه
شلب
المريه
مالاقا
جبل طارق
سبته
طنجة
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط

# ١ـ ادارة الحرب والدولة

أدرك الحاجب المنصور منذ توليه ادارة الحرب حقيقة التكامل بين القوة الذاتية للأندلس وبين القدرة القتالية للقوات. فكان يعمل على دعم الجبهة الداخلية من جهة ويزيد من حجم القوات المسلحة ويضاعف من كفاءتها من جهة ثانية. وقد أفاد في ذلك من دروس الصراع المستخلصة عبر صراع الأمويين مع الكيانات التي أقامها النصارى في شمال البلاد، بقدر ما أفاد أيضاً من تجارب الامويين في بناء القوات المسلحة. ولاحظ أن تنظيمات الأمويين بقيت معتمدة على (النظام القبلي) اذا صح التعبير، فعمل على اعادة تنظيم القوات بشكل متقدم يزيل فيه دور (العصبية القبلية) ويحل محلها (الانضباط العسكري) بمفهومه الحديث، وكان هدفه من ذلك هو اعادة توحيد الأندلس لتصبح كما كانت عليه أيام الفتح. وهو الأمر الذي تبرزه المقولات التالية: «**قوي أمر الجلالقة عندما شغل المسلمون بعبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ والتمهيد لأمره، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم الى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية، وصارت للجلالقة، حتى أفتتحها المنصور**

ابن أبـي عامر آخر الدولة ثم استعادوه بعدهافيها استعادوه من بلاد الأندلس»[1] «وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والافخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبـي عامر الداهية، الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاز، وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن، والاعتزاء بالأندلس، الا ما جاءت على غير هذه الجهة»[2] . ترى بعد ذلك هل كان القضاء على عصبية القبيلة لمصلحة الدولة الأندلسية؟ وهل نجح المنصور في تحقيق هدفه بتوجيه الفاعليات الكامنة والقدرة الذاتية المتوافرة نحو (هدف الحرب)؟ وهل استطاعت الحروب الخارجية استيعاب التناقضات الداخلية؟ تلك أسئلة يجيب عليها النص التاريخي التالي ـ لابن عذارى ـ مع تجاوز ما يتضمنه هذا النص من تحسينات بديعية، وصور بلاغية: «المنصور ـ فردنا به على من تقدمه، وصرفَهُ واستخدمه، فإنه كان أمضاهم سناناً، وأذكاهم جناناً وأتمهم جلالاً وأعظمهم استقلالاً، فآل أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المال، فإنه كان آية الله في اتفاق سعده، وقربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، واستظهر بالأناة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو وتملك فما خفق بأرضه لواء عدو، بعد خمول كابد منه غصَصاً وسْرقاً، وتغدر مأمول طارد فيه سهراً وأرقاً، حتى أنجز له الموعود، وفرنحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إناقة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك واتضحت به المسالك وانتشر الأمن في كل

---

(١) نفح الطيب ١ / ٣٣٠.

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٩٣.

طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حجة، ولم تزخر لمكروه بها لجة، لبست فيه البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العِراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أسد سهام غزا الروم شاتياً وصائفاً، ومضى فيما يروم زاجراً وعائفاً، فما مر له غير سنيح، ولا فاز إلا بالمعلى لا بالمنيح، فأوغل في تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت رايته - ألويته - صيد القبائل، واستجرت في ظلها بيض الظباء وسمر الذوابل، وهو يقتضي الأرواح بغير سَوْم، وينتضي الصفاح على كل رَوْم. ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويخطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت في ملكه اجتماع قريش بدار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفة والإجابة، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يباباً، وملأها وحشاً وذئاباً، وأعراها من الأمان برهة من الزمان، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والتأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذي الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر»[1] **وقد يكون من المناسب هنا استباق الأحداث من**

---

(١) ابن عذارى ٢/٤٠٧ (وفي طبعة ليون ٢٧٣) وفيه: كان المنصور يمني نفسه بملك مصر والحجاز وفي ذلك قوله:

منع العين أن تذوق المناما ... حبها أن ترى الصفا والمقاما

لي ديون بالشرق عند أناس ... قد أحلّوا بالمشعرين الحراما

إن قضوها نالوا الأماني وإلا ... جعلوا دونها رقاباً وهاما =

أجل مقارنة النتائج المباشرة لأعمال الحاجب المنصور ومنجزاته، بتلك النتائج غير المباشرة التي ظهرت بعد زوال حكم المنصور، فاذا كان المنصور قد نجح في تحقيق أهدافه بالقضاء على العصبية القبلية، وترويض الناس على الخضوع له، والقضاء على مراكز القوى، فقد أدت النتائج غير المباشرة الى ظهور ردود فعل عكسية تماماً برزت من خلال تمزق الأندلس الى أحزاب وشيع متنافرة، تم التعبير عنها بظهور حكم (ملوك الطوائف) وهو ما يعبر عنه النص التاريخي التالي: «اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستقلال عن إمام الجماعة، منذ وقعت الفتنة بالأندلس، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك، ومرنوا على ذلك، فصعب ضبطهم الى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع، الى أن انقادوا الى عبد المؤمن وبنيه، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوار في المعاقل تثور وتروم الكرة، إلى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل، ووجد قلوباً منحرفة عن دولة بر العدوة، مهيأة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال. وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء، وكان كما قيل:

**أمور يضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها الحليم**

---

= عن قريب ترى خيول هشام ... يبلغ النيل خطوها والشاما

وكانت أمه تيمية، فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، ولذا قال الشاعر القسطلي فيه:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلألأ في العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم ... سحائب تهمي بالندى وبحور

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة، وتملك الأمصار الجليلة وخروجها من يد الاسلام. والضابط فيما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة، آل الأمر إلى ما يؤول إليه، وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة، قدموه ملكاً في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم ـ إن كان لهم ذلك ـ بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته، وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع»[1] .

وفي مجال ادارة الحرب، يمكن التعرض لما أمكن للحاجب المنصور من الوسائط والقوى، فقد استطاع من خلال اعادة التنظيم حشد قوات ضخمة: «وذكر بأن قرطبة كانت مجمع جيوش الإسلام ـ فيها تنتظم القوات قبل التوجه لدار الحرب ـ وحين تم للمنصور بن أبي عامر ملك البرين ـ (الاندلس والعدوة بالمغرب) وتوفرت الجيوش والاموال، عرض بظاهر قرطبة خيله ورجله، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده، فنيف الفرسان على مائتي ألف، والرجالة على ستمائة ألف، وبها من صناديد المسلمين وقوادهم من لا يفتر عن محاربة، ولا يمل من مضاربة، أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارى مشهورة، وآثارهم فيها مأثورة، وقلوبهم على

---

(١) نفخ الطيب ١ / ٢١٥ـ ٢١٦

البعد بخوفهم معمورة»[1] وقد يكون هذا الرقم الذي تضمنته المقولة السابقة أكبر من العدد الحقيقي لجيش (الحاجب المنصور) غير أنه يشير في كل الأحوال إلى مبلغ ما وصله جيش المسلمين من القوة في ذلك العهد. وذكر أن المنصور كان يستخدم الاسرى الذين يحصل عليهم في حروبه للقتال في الحروب التالية وهو ما يتضمنه النص التالي: «ومن مناقب المنصور التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن أن أكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين. ومن أخباره أيضاً أنه ما عاد قط من غزوة الا استعد لأخرى، ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فخراً»[2]. وقد يكون من الصعب على منطق العصر الحديث ومفاهيمه قبول فكرة استخدام الأسرى في القوات المسلحة، لا سيما وأن الحرب ستتجدد باستمرار ضد الجيوش التي تم الحصول على الأسرى منها، غير أن الاحتمال الأرجح هو استخدام هؤلاء الاسرى للقيام بالاعمال التي يضطلع بها الرجال ممن تم حشدهم بالحرب ـ على نحو ما فعلته النازية، وعلى نحو ما تفعله اسرائيل أيضاً في مجال استخدام العرب للزراعة والبناء من أجل توفير الطاقة البشرية للحرب، وهذا بدقة ما أشار اليه نص تاريخي ذكر ما يلي: «عمل المنصور على زيادة جامع قرطبة ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية، استخدام أعلاج النصارى الذين أحضرهـم مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً من رجالة المسلمين، إذلالاً للشرك وعزة للاسلام»[3] وتجدر الاشارة هنا أيضاً إلى أن التغيرات الجديدة التي

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٢١٦

(٢) نفح الطيب ٣/ ٥٩٦.

(٣) نفح الطيب ٣/ ٥٤٦.

جاء بها الحاجب المنصور قد رافقها فرض انضباط صارم على الجيوش وهو ما تبرزه المقولة التالية: «انتهت هيبة المنصور بن أبـي عامر وضبطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوام الملك إلى غاية لم يصلها ملك قبله، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلاً في الاطراق، حتى أن الخيل لتتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله، فقال: عليَّ بشاهر السيف، فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن؟ فقال: إنـي أشرت به إلى صاحبي مغمداً فزلق من غمده، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، وأمر به فضربت عنقه بسيفه، وطيف برأسه، ونودي عليه بذنبه»[1] .

ويمضي الحاجب المنصور بهذا الجيش الذي اكتمل نظامه وتنظيمه، وتعاظم في عدده وعدته، ليرسم على صفحات التاريخ أمجاده الحربية وانتصاراته القتالية، وليعيد لشبه الجزيرة الأندلسية أمجادها الاولى أيام الفتح الخالدة.

---

(١) نفح الطيب ٣ / ٤١٩.

# ٢ـ غزوات المنصور في الشمال

لم يكن الحاجب المنصور في حاجة للذرائع والحجج من أجل القيام بغزواته ضد دول النصارى في الشمال، فقد كانت هذه الدول في حالة حرب شبه دائمة ضد المسلمين. غير أن الحاجب المنصور استخدم أسلوباً فريداً لشن هذه الحروب ويتلخص هذا الأسلوب في الانتصار للمسلمين والاستجابة لأهدافهم مما ضمن له تحقيق هدف مزدوج، الأول رفع الروح المعنوية للمسلمين والثانـي، إحباط ارادة القتال لدى الأعداء. وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل أعمال المنصور المتشابهة، ولهذا فقد يكون من الافضل اللجوء إلى اسلوب الانتقاء في محاولة للتركيز على بعض المعارك المميزة باساليبها القتالية وطرائقها في خوض العمليات، بل وحتى في حجة خوضها وفقاً لما سبقت الإشارة اليه، وهناك نموذجان يمكن البدء بهما، وهما يتعلقان بإنقاذ اسيرتين مسلمتين، وقد اوردتهما المصادر التاريخية على النحو التالي: «تمرس ابن أبـي عامر ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذلّ من وتدٍ بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد الى اكبادهم

سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم، ونغصَّ بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار في ذلك أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب، فسار في بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنس فوالى في إكرامه، وتناهى في بره واحترامه، فطالت مدته، فلا متنزه إلا مرَّ عليه متفرجاً، ولا منزل إلا سار عليه معرجاً، فحل في ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يجَول في ساحتها، ويجيل العين في مساحتها، إذ عرضت له إمرأة قديمة الأسر، قويمة على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصَغار ملبسة، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى تم كلامه، فلما فرغ قال له المنصور: هل وقفت هناك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه ثم أخذ للجهاد من فوره وعرض مَن مِن الأجناد في نجده وغوره، وأصبح غازياً على سرجه، مباهياً مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجة في جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجلية، ويحلف له بأعظم ألية، أنه ما جنى ذنباً، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنباً، فعنّف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسور، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة في اثنتين

معها. وأقسم أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقاً لقوله، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطَوْله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحف توحشها بأنسه، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وامحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها»[1] أما الحادثة الثانية، فقد وردت كالتالي: «عاد ـ المنصور من بعض غزواته، فلقيته امرأة نقمت عليه بلوغ مناه وشهواته. وقالت له: يا منصور! استمع ندائي! أنت في طيب عيشك وأنا في بكائي. فسألها عن مصيبتها التي عمتها وغمتها، فذكرت له أن لها ابناً أسيراً في بلاد سَمَتْهَا، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده، ولا يخبو ضرَام قلقها من وقده، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي (أيا ويحَ الشجي من الخلي)[2] فرحب المنصور بها، وأظهر الرقة بسببها، وخرج من القابلة الى تلك المدينة التي فيها ابنها، وجاس أقطارها وتخللها، حتى دوخها إذ أناخ عليها بكلكله وذَلَلها، وأعراها من حُماتها، وببنود الإسلام المنصورة ظللها، وخلص جميع من فيها من الأسرى، وجلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسرا. وانقلبت عيون الأعداء حَسْرى»[3]. يمكن بعد ذلك الانتقال لاستقراء بعض ملامح الطرائق التي كان يستخدمها الحاجب المنصور في عملياته، ومنها ما يبرزه النص التاريخي التالي: «من مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج، فلما جاوز ذلك المحل ـ وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً ـ لم يجسر

---

(١) نفح الطيب ٤٠٤/١

(٢) شطر بيت لأبي تمام، وتمامه: (وبالي الربع من إحدى بلي).

(٣) نفح الطيب ٥٩٧/١.

أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين، وكان الوقت شتاء، فلما رأى ما فعلوه، رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر، وتقدم ببناء الدور والمنازل، وبجمع آلات الحرث ونحوها، وبث سراياه فَسَبَتْ وغنمت، فاسترق الصغار، وضرب أعناق الكبار، وألقى جثثهم حتى سد بها المدخل الذي من جهته، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم، فامتنع من ذلك، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسره فأجابهم: إن أصحابي أبوا أن يخرجوا، وقالوا: إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عُدنا، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده، وأن يُنّحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كله، وانصرف. وكان ذلك عز ما وراءه مطمح، ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح، خصوصاً إزالتهم جيف قتلاهم من الطريق، وغصصهم في شرب ذلك بالريق»[1]. ومن المتوقع بعد ذلك، وفي ظروف الصراع المستمر، أن يحاول كل طرف معرفة ما يحدث في جبهة الطرف الآخر عن طريق تنظيم شبكة استطلاع دقيقة، مع اتخاذ التدابير الوقائية لحماية قواته واقاليمه من شبكة خصمه (الجاسوسية والجاسوسية المضادة). وقد اهتم الحاجب المنصور اهتماماً كبيراً بقضية الأمن والاستطلاع، ومما حفظه له التاريخ القصة التالية: «كان ـ الحاجب

---

(١) نفح الطيب ١ / ٥٩٥ـ ٥٩٦.

المنصور ـ جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقال له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إليَّ، قال: فنهض الفارس وبقي في الفج، في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له. ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس: الى أين تريد يا شيخ؟.. فقال: وراء حطب، فقال الفارس في نفسه: هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يسوق حطباً، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فتركته، فسار عني قليلاً، ثم فكرت في قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت الى الشيخ، وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور، فقال لي: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي. فقال له الفارس: لا أفعل. ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه، وهو جالس لم ينم ليلته تلك فقال المنصور للصقالبة: فتشوه. ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً. فقال: فتشوا بردُعة حماره، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في احدى النواحي... فلما انبلج الصبح، أمر باخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم»[1].

كان من نتيجة هذه الطرائق التي طبقها الحاجب المنصور أنه حقق نجاحاً لا مثيل له في إحباط ارادة القتال لدى اعداء المسلمين وهو ما يشير اليه النص التالي: «كان للمنصور في كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخراً من المفاخر الإسلامية، فمنها أن بعض أجناده نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم،

(١) البيان المغرب ٢ / ٤٣٤.

فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر، وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث، لأنهم لما أُشرب قلوبُهُم خوف شرذمة المنصور وحزبه، وعلم كلٌ من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه، لجأوا إلى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعد والاطلاع»[1] وبقدر ما كان المنصور يهتم بمعرفة أوضاع جند العدو، كان اهتمامه كبيراً أيضاً بمعرفة أحوال جنده، وهو ما يبرزه النص التاريخي التالي: «أصبح المنصور صبيحة أحدٍ، وكان يوم راحة الخَدمَة الذي أُعفوا فيه من قصد الخدمة، في مطر وابل غَبَّ أيام مثله. فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواطبين لقصدنا في مكابدته فليت شعري هل شذ أحد منهم عن التقدير فأغرب في البكور؟ اخرج وتأمل، يقوله لحاجبه، فخرج وعاد إليه ضاحكاً، وقال: يا مولاي، على الباب ثلاثة من البرابرة: أبو الناس بن صالح واثنان معه، وهم بحال من البلل إنما توصف بالمشاهدة. فقال: أوصلهم إليَّ وعجل. فدخلوا عليه في حال الملاَّح- البحار- بللاً ونداوة، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم، وقال: خبروني كيف جئتم؟ وعلى أي حال وصلتم؟ وقد استكان كل ذي روح في كنه، ولاذ كل طائر بوكره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا! ليس كل التجار قعد عن سوقه، وإذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر ومن غير رؤوس الأموال. وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيلُ على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل في قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاء،

---

(١) نفح الطيب ٥٩٥/١.

فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا؟ فضحك المنصور، ودعا بالكسا والصلات، فدفعت لهم، وانصرفوا مسرورين بغدوتهم»[١] ويظهر بوضوح أنه بقدر ما كان المنصور صلباً وقاسياً مع جنده بقدر ما كان أيضاً كريماً معهم، يغرقهم بأعطياته، ويغدق عليهم المنح والهبات يشتري بها ولاءهم، فيعادل بذلك بين (الثواب والعقاب) والشواهد على ذلك كثيرة- ومنها القصة التالية: «تقدم الى المنصور- وانزمار بن أبـي بكر البرزالي. أحد جند المغاربة، وقد جلس المنصور للعرض والتمييز، والميدان غاصٌ بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاي! مالي ولك، أسكني فإني في الفحص، فقال: وما ذاك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني عنها والله نعمتُك، أعطيتني من الضياع ما انصب عليَّ منها من الاطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها، وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس، أتراني أبعد القمح عني؟ ليس ذلك من رأيي!. فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فذ عيي لَعْيُكَ في شكر النعمة أبلغ عندنا، وأخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد وبليغ متفنن، وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس. فقال: يا أصحابنا، هكذا فلتشكر الأيادي، وتستدام النعم؛ لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكي المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية»[٢]. ويظهر من خلال ذلك أن المنصور قد دعم جبهته الداخلية وعمل على تقويتها من أجل مجابهة تحديات نصارى الشمال. واستخدم انتصاراته الخارجية في الوقت ذاته من أجل دعم مكانته الداخلية، وزيادة قدرته العسكرية. ومن خلال هذه العلاقة الجدلية والمتبادلة أمكن له تحقيق التوازن الدقيق والمحكم في اعادة التنظيم الشامل للدولة.

---

(١) نفح الطيب ١/٤١٧- ٤١٨.

(٢) المصدر السابق.

## ٣ـ الضربات الاجهاضية المسبقة

عودة الى بداية عهد الحاجب المنصور في قيادة الجيوش وادارة الحرب، وكان ذلك في سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م، عندما توفي الخليفة الحكم المستنصر. وطمعت دول الشمال، فأسرعت كعادتها لاغتنام فرصة الاضطراب التي كانت تأتي في أعقاب انتقال الحكم من خليفة الى خليفة. وتقدمت قوات ليون (جيليقية) حتى وصلت قلعة رباح على نحو ما سبقت الاشارة اليه. وتولى الحاجب المنصور قيادة القوات، ولم يتوجه بها للدفاع عن (قلعة رباح)[1] بل عمل على نقل المعركة الى قلب بلاد العدو، فقاد قواته الى (حصن الحامة) في جيليقية، فحاصره، وسيطر بقواته على الاقليم كله، وعزل الحصن

---

(١) قلعة رباح: مدينة تابعه لطليطلة، وموضعها يسمى اليوم: CASTILLO DE CALTARAVA . LA VIEJA وفي المغرب في حلى المغرب ٢/٣٩ (هي أحد معاقل الاندلس، وولاتها كانت تتردد عليها من طليطلة، ثم اخذت طليطلة فصارت تتردد عليها من قرطبة) وفي نفح الطيب ١/١٩٠ (لما دخل الاندلس امير المسلمين علي ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، ملك المغرب والاندلس، وأمعن النظر فيها، وتأمل وصفها وحاها، قال إنها تشبه عقاباً، مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح ورأسه جيان ومنقاره غرناطة، وجناحه الأيمن باسط الى المغرب وجناحه الأيسر باسط الى المشرق).

عزلاً تاماً حتى نجح في اخضاعه. وبعد ثلاثة وخمسين يوماً من بداية التحرك ومغادرة قرطبة، عاد الحاجب المنصور بالجيش وهو مثقل بالغنائم والسبي، وعمل الحاجب المنصور على منح المقاتلين الهبات والهدايا الكثيرة، فأحبه الجنود والتفوا حوله، واستعان بالوزير أبـي تمـام غالب الناصري، فتـم تقسيم قيـادة القوات بحيـث أصبحت قـوات الثغور بقيادة غالـب الناصر وقيـادة الجيش فـي قبضة الحاجب المنصور[1].

**لم يمض على بداية الغزوة الاولى أكثر من ثلاثة أشهر (وفي عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م أيضاً) حتى قاد الحاجب المنصور جيش الحضرة الى الشمال والتقى بمدريد مع قائد قوات الثغر الوزير غالب، وانطلقا معاً، وافتتحا عدداً من الحصون، بينها حصن مولة، وكان أكثر الاثر فيها للوزير غالب الذي عمل على نسب الانتصارات لابن أبـي عامر بموجب اتفاق بينهما وذلك لتعزيز مكانة الحاجب المنصور في قرطبة، وتوفير الفرصة للتخلص من الحاجب المصحفي، وعاد ابن عامر الى قرطبة محملاً بالغنائم الكثيرة والسبي الكثير، ونجحت الخطة فتم إقصاء المصحفي، وتولى ابن عامر ولاية الشرطة والجيش. ولم يلبث ابن أبـي عامر حتى تزوج بأسما إبنة الوزير غالب الناصري. وقد جاءت هذه العملية والتي سبقتها لتقنعان ملوك ممالك الشمال باستمرار السياسة التي كانت مطبقة بحزم في عهدي عبد الرحمن**

---

(١) في ابن عذارى، البيان المغرب ٢/٣٩٤-٣٩٥ ما يلي: «لم يزل ابن أبـي عامر يقوم بشأن الخليفة هشام، ويخدمه داخل الدار عند السيدة ام هشام وسائر الحرم حتى تم مراده فيه، كي يستعين به على اهلاك المصحفي، فأنهض غالباً الى خطة الوزارتين وانفذ إليه كتاب الخليفة بذلك، وأمره بالاجتماع مع ابن أبـي عامر على التدبير على الصوائف. على أن يدير ابن أبـي عامر جيش الحضرة، ويدير غالب جيش الثغر».

**الناصر ومن بعده ابنه الحكم المستنصر. مما أضعف من ارادة القتال لدى اعداء المسلمين.** في العام التالي (٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) قاد الحاجب المنصور للمرة الثالثة جيش الحضرة ووصل طليطلة، حيث التقى مع عمه لزوجته (الوزير غالب الناصري) وسارت قواتهما معاً لاحتلال الحصون، فتم لهما الاستيلاء على حصن المال وحصن رنيق. وتابعت قواتها المشتركة تقدمها في مملكة ليون، فسيطرت على أقليم (شلمنقة- سلمنقة). واستولت على ما فيه من غنائم وسبي، وأعملت في الحصون تدميرا، وفي المزارع احراقاً، وعاد الحاجب المنصور الى قرطبة بعد أربعة وثلاثين يوماً من خروجه. وكان لما حققه من نصر في ردع دول الشمال، وما أنجزه في سياسته الداخلية من سيطرة قوية ونشر للأمن دور كبير في استلامه- خطة الوزارتين- واحتلال مركز السلطة في دولة الأندلس. «وانصرف الحاجب المنصور بعد ذلك إلى توطيد سلطته والقضاء على منافسيه بضرب بعضهم ببعض وتصفيتهم واحداً بعد الآخر، حتى لم يبق من مراكز القوى المناوئة له سوى الوزير غالب الناصري. فأخذ في الإعداد لذلك، والاعتماد على البربر وتشجيعهم على الانتقال من عدوة المغرب والانضمام لقوته (فانثالوا على ابن أبـي عامر وما زالوا يتلاحقون، وفرسانهم يتواترون). ثم عين الحاجب المنصور وزيراً له من رفاقه، وهو جعفر بن علي بن حمدون، وبذلك أصبحت سيطرة البربر كاملة على الدولة العامرية. واستطاع الحاجب المنصور أن يستعين بهم للقضاء على منافسيه جميعاً. كما اتبع الاسلوب ذاته في تصفية مراكز القوى بين البربر وذلك بضرب زعماء البربر بعضهم ببعض، والافادة من التناقضات لتدعيم مركزه، فأصبحت سيطرته قوية على الداخل، مما جعله قادراً على الانطلاق في أعمال غزو الشمال من قاعدة قوية ومأمونة، وزج كل القوى

والامكانات على جبهة واحدة»[1].

لم تكن الغزوات السابقة اكثر من تمهيد للغزوات اللاحقة، تمرس فيها محمد بن أبـي عامر ادارة الحرب تحت قيادة أصلب قادة الاندلس وأكثرهم كفاءة ومعرفة بالعدو، بقدر ما أفاد منها ابن أبـي عامر في معرفة مسرح العمليات. فتابع قيادة الصوائف والشواتـي، فكان له في كل عام غزوتين أو أكثر بين صائفة وشاتية، وكان من اكبر عمال الحاجب المنصور في هذه الفترة الهجوم على (سمورة) في عام ٣٧١ هـ = ٩٨١ م، حيث عملت قوات المسلمين على تدمير اقوى معاقل الشمال، ولم تغادر (سمورة)[2] الا بعد ان تركتها طعمة للنيران، والدمار يخيم عليها، انتقاماً لما كانت تمارسه هذه المدينة ضد ثغور المسلمين.

انتقل أولاد زيري بن مناد (وهم زاوي وجلالة وماكسن اخوة

---

(١) ابن الاثير ـ ٧/٢١٧ـ احداث سنة ٣٩٣ هـ، وابن عذارى ٢/٤١٦ ونفح الطيب ١/٣٩٧ وابن خلدون ٤/١٤٧.

(٢) سمورة (أو زمورة): ZAMORA مدينة اندلسية، تقع على نهر دويره DOURO من مدن إمارة ليون، تشتهر بكاتدرائيتها. ويذكر أن سمورة وقعت تحت سيطرة نصارى الشمال ايام عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ وقام عبد الرحمن الناصر بغزو سمورة (سنة ٣٢٦ هـ) وفقاً لما جاء في نفح الطيب ٣٥٥/١ حيث ذكر ما يلي: «غزا عبد الرحمن في أزيد من مائة ألف من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة سمورة وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان، قد أحكمته الملوك السالفة، وبين الأسوار فصلات وخنادق ومياه واسعة، وافتتح منها سورين، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الإحصاء، وممن عرف، أربعين ألفاً، وقيل خمسين ألفاً. وكانت للجلالقة والبشكنس على المسلمين» غير أن سمورة لم تلبث أن خضعت اسمياً لحكم الناصر ومن بعده المستنصر، مع الانطلاق من سمورة للعدوان كلما كان ذلك بالمستطاع مما دفع الحاجب المنصور لغزوها مرات متتالية حتى تم تدميرها واخضاعها.

بلكين) الى الأندلس في سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م. فاستقبلهم الحاجب المنصور. وطلبوا اليه السماح لهم بمشاركته شرف الجهاد. ومما قالوه له: انما اخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله. واشترطوا الانفراد وحدهم بممارسة الأعمال القتالية. فوافق الحاجب المنصور. وعمل على تسليحهم وتجهيزهم بالخيول والأموال والأدلاء، فاقتحموا حدود جيليقية ليلاً، وأقاموا كمائنهم في الحقول القريبة من المدينة، وقتلوا كل من بها بهدف تحقيق المباغتة والمحافظة على السر، فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد، فضربوا عليهم وأخذوهم وقتلوهم جميعهم فرجعوا وتسامع العدو، فركبوا في أثرهم، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة، فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم، وضربوا في مؤخرتهم (ساقتهم) وكبروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كثير، فانهزموا، وتبعهم جند صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثيراً، وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا الى قرطبة. وأثارت هذه الغزوة حماسة العرب، وهم ينطلقون بجموعهم التي تم حشدها من جميع الأقطار لغزو قاعدة عدوان الشمال (مملكة ليون) وهي الغزوة التي نفذت أيضاً في سنة (٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م) حيث انطلق الحاجب المنصور بجيشه الكثيف الى مملكة ليون، والوصول الى عاصمتها التي كانت تحمل الاسم ذاته (مدينة ليون). وعندما وصلها ضرب حصاراً حولها. وطلب ملك ليون الدعم من الدول المجاورة فأمده الإفرنج بجيوش كثيرة، ووقعت معارك ضارية اتصل فيها القتال ليلاً ونهاراً، وأظهر الافرنج قدراً كبيراً من الصمود كما أظهر المسلمون تصميماً أكبر على انتزاع النصر. واستشهد عدد كبير من المسلمين كما قتل عدد كبير من قادة الافرنج. وأخذ الموقف في النهاية بالتحول لمصلحة المسلمين «الذين حملوا على النصارى، فانهزموا الى بلادهم، وقتل منهم ما لا

يحصى، وملك المدينة (ليون)[1] وغنم ابن عامر غنيمة لم ير مثلها، واجتمع له من السبي ثلاثون ألفاً، وأمر بالقتلى، فنضد بعضها على بعض، وأمر مؤذناً فأذن للمغرب فوق القتلى، وضرب مدينة ـ قامونة ـ (وقد تكون سلمنقة) وعاد جيش الحاجب المنصور الى قرطبة»[2]

قاد الحاجب المنصور بعد ذلك (وفي سنة ٣٧٦ هـ = ٩٨٦ م) جيشه، واستطاع اقتحام أسوار برشلونة واحتلالها وفرض سيطرته عليها بعد أن طال انفصالها عن دولة الأندلس الاسلامية وخضوعها لملوك فرنسا الكارولنجيين بصورة اسمية[3] وتتابعت بعد ذلك مجموعة من الصوائف والشواتي قبل أن تحدث الوقعة المعروفة باسم (غزوة البياض) والتي كانت من أيام الحاجب المنصور المشهودة.

**غزوة البياض (٣٧٩ هـ = ٩٨٩م)** أعلن عبد الله بن الحاجب المنصور تمرده على أبيه، واعتصم بقلعة شنت اشتيبين (سان استيفان) فقاد المنصور الجيش، وحاصر ـ شنت اشتيبين ـ فهرب عبد الله، والتجأ

---

(١) ليون: LEON ـ اقليم في شمال غربي الأندلس، فتحه في القرنين التاسع والعاشر ملوك اشتوريش ASTURIES . والذين حملوا اسم ملوك ليون اعتباراً من سنة ٩١٠ م. وانضمت مملكة ليون بصورة نهائيه لمملكة قشتالة CASTILLE اعتباراً من سنة ١٢٣٠ م. وهي تضم حالياً اقاليم ليون وسمورة وبلنسية PALENCIA ووادي الوليد VALLANDOLID ، وسلمنقة SALAMANQUE ولا زالت مدينة ليون هي عاصمة الاقليم.

(٢) الكامل ـ ابن الاثير ١٢٠/٧.

(٣) برشلونة : BARCELONA مدينة اسبانية عاصمة كاتالونيا CATALOGNA وبين برشلونة ومدينة طركونة خمسون ميلاً وهي الى الشمال منها. وقد فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير (٩٢ هـ ـ ٧١١ م) وعاد الفرنج فسيطروا عليها سنة ١٨٥ هـ = ٢٠٦ م (في عهد الحكم بن هشام) وأصبحت تابعه للكارولنجيين (ملوك فرنسا) حتى سنة ٣٧٦ هـ = ٩٨٦ م حيث حررها الحاجب المنصور. واستعادها الفرنج نهائياً سنة ١٢٦٦ م تقريباً.

الى البشكنس، ووعده ملك ألبة والقلاع (غرسية بن فرذلند) بالحماية والدعم، فتحرك الحاجب المنصور في اتجاه منطقة البشكنس (الباسك) وطالب غرسية بتسليم ابنه عبد الله، فرفض الملك غرسية، فأقسم الحاجب المنصور ألا ينسحب أو يعود إلى قرطبة قبل أن يتسلم عبد الله، وتقدم نحو الشمال فاصطدم بمقاومة البشكنس، ونجح في ازالة المقاومات الصغرى، ثم جابه جيش البشكنس فمزقه وتابع تقدمه فاحتل (حصن وخشمة ـ اوسمة) وأنزل به رابطة من المسلمين وعندما وصل موقف النصارى الى هذه الحالة من التدهور، وأدرك غرسية أن الحاجب المنصور مصمم على متابعة عملياته حتى يتم له الوصول الى اهدافه، أرسل اليه وفداً للتفاوض، وأعلن عن استعداده لقبول شروط الحاجب المنصور جميعها، ودفع عبد الله وغيره من اللاجئين البشكنس، وتم الاتفاق على عقد الصلح وبعث المنصور من تسلم اللاجئين، وأصدر اوامره بقتلهم وفيهم ابنه عبد الله[1] واخذ الحاجب المنصور في الجلاء عن المنطقة، إلا أنه لم يكد يبتعد كثيراً حتى أفاد ملك ليون ـ قشتالة ـ من الموقف، ظناً منه أنه قادر على مباغتة ثغور المسلمين. فحشد قواته، واندفع بها متجاوزاً الحدود، فتصدى له حاكم مدينة سالم (الوزير قند الذي عينه المنصور بعد القضاء على غالب الناصري) والذي قاد قواته نحو ليون ذاتها، فتجاوز الحدود، وأعمل في السهول احراقاً وفي القلاع تدميراً، وحصل على غنائم ضخمة، ثم اكتفى بما حققه من نتائج وأخذ في الانسحاب والتراجع. فما كان من ملك ليون (غرسية) الا أن عمل على انتقاء وحدة مختارة من قواته، وقادها في محاولة لضرب قوة الثغر التي كان يقودها الوزير قند. ولكن جيش الثغور الذي كان يقوده الوزير قند جابه محاولة غرسية

---

(١) ابن عذارى ـ البيان المغرب ـ ٢ / ٤٢١.

بحزم وقوة، وأمكن له انتزاع النصر، واحباط هجوم غرسية الذي أصيب بجراح بالغة أوقعته أسيراً مع مجموعات الاسرى التي وقعت في قبضة المسلمين. وبذل الوزير قند العناية اللازمة، غير أنه لم ينجح في انقاذ أسيره من الموت، فجز رأسه ووضعه في تابوت وأرسله الى قرطبة، واحتفظ بجسده، وأعلم الحاجب المنصور بمسيرة الاحداث ونتائجها. وتولى شانجة بن غرسية الحكم فعقد الصلح مع الحاجب المنصور، وطالب باستلام جثة والده، فأرسلت اليه[1].

استمرت الصوائف والشواتي في التردد على أقاليم الشمال بقيادة الحاجب المنصور ذاته، حتى جاءت سنة ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م. حيث عاد المنصور لغزو مملكة ليون أيضاً والتي لا زالت تتزعم حركة المقاومة ضد المسلمين وحقق جيش المنصور كعادته انتصاراً كبيراً. وأمكن له أسر أعداد كبيرة كان فيهم (غرسية بن شانجة بن غرسية) ابن ملك ليون، والذي حمل الى قرطبة ليعيش فيها فترة طويلة حيث تعهده المنصور بالرعاية والعناية[2].

وصل الحاجب المنصور عند هذه المرحلة الى إحكام قبضته للتضييق على كل خصومه في الداخل والخارج، فقد مضت عليه في الحكم والسلطة زهاء عشرون سنة، أمكن له خلالها ترويض الكيانات النصرانية في الشمال، حتى أصبحت هذه الكيانات عاجزة عن تقديم أية مقاومة، ولو أنها لا زالت تحاول باستمرار اعادة تنظيم امورها مستفيدة في ذلك من الدعم المستمر الذي كانت تتلقاه من دول الشمال (الكارولنجيين) مع الافادة من تجمعات النصارى في الأندلس

---

(١) الذخيرة - ابن بسام - القسم الرابع ٣١.

(٢) ابن الاثير- الكامل في التاريخ ٧ / ١٧٣.

لاثارتهم وتحريضهم، غير أن انتصارات المنصور أضعفت تلك الاقليات بقدر ما أضعفت قدرة التحريض الخارجي. وفي الوقت ذاته استطاع الحاجب المنصور اكتساب العدوة (المغرب) بفضل اجتذاب البربر الى الاندلس والافادة من طاقاتهم للجهاد في سبيل الله، ولم يعد في الاندلس وخارجها من يمتلك القدرة الحقيقية على ممارسة العدوان الحقيقي أو توجيه التهديدات الخطيرة. وتوافق ذلك مع ضعف المملكة الكارولنجية، مما أفسح المجال أمام المنصور لممارسة عملياته في اطار من حرية العمل شبه المطلقة. غير أن الحاجب المنصور لم يكن قادراً على الاستكانة لهذه الظواهر، إذ أن خبرة المسلمين باعدائهم شكلت قناعة بأنه من المحال الركون الى الهدوء والاستقرار طالما بقيت هناك قوات كبيرة للفرنج في الشمال. وإذا ما أمكن للحاجب المنصور القضاء على تهديد (ليون) واحتلال اقاليمها واضعافها وتدمير حصونها من أمثال (سمورة) و (شنت اشتبيين) و (وشقة)[1] و (خشمة)[2] و(حصن الحامه) و (سلمنقة أو شلمنقة) فانه لا زالت هناك مقاومات كبرى تتجمع في أقصى الشمال الغربي من الاندلس، مستفيدة في ذلك من المواقع المنيعة للاقليم وصعوبة الاتصال به والوصول اليه. وكان هذا اكبر تحد يجابه المنصور.

---

(١) وشقة : HUESCA من كور- نواصي- الثغر الأعلى، بينها وبين سرفسطة خمسون ميلاً، وتقع الى الشمال الشرقي منها. وهي غير بعيدة عن شنت اشتبين: SAN-ESTEBAN ، (وبها يسمى غير موضع بالاندلس) وكلاهما كانتا من المعاقل القوية لنصارى الشمال، ولهذا تعرضتا للهجمات التي كانت تقوم بها قوات المسلمين، وبصورة خاصة أيام (الحكم المستنصر)(٣٥٠- ٣٦٦ هـ).

(٢) وخشمة (واوردتها بعض المصادر العربية (خشخة) وهي OSMA . تعرضت للهجوم ايام عبد الرحمن الناصر (٣٢٢ هـ) بسبب استخدامها كقاعدة للعدوان ضد ثغور المسلمين.

# ٤- غزوة (شنت ياقب)

## آ- الوضع العام

تقع (شنت ياقب) في أقليم جيليقية (شمال غرب الأندلس). ونظراً لوعورة هذا الاقليم وصعوبة مسالكه، فقد هرب اليه اولئك الذين تصدوا للفتح الاسلامي وقاوموه، وجعلوه مستقراً لهم ومقراً لنشاطهم، غير أن موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يغادرا الاندلس حتى تم لهما اقتحام هذا الاقليم على أهله، وتمزيق المقاومة التي تجمعت فيه. لكن اقليم (جيليقية) بقي قاعدة ضخمة للعناصر المناوئة للحكم الاسلامي[1]. وهذا ما دفع هشام بن عبد الرحمن الداخل الى غزوه،

---

(١) جاء في نفح الطيب ٢٧٥/١ ما يلي: «كانت نفس موسى بن نصير في ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر- جيليقية- فبينما هو يعمل في ذلك ويعد له إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الاندلس والإضراب عن الوغول فيها، ويأخذه بالقفول اليه، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن بالاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جيليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله إنظاره الى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل، ومشى معه حتى بلغ المفازة، فافتتح حصن بارو (اليوم VILLABARUS) وحصن لك - LUCUS) =

فذكرت المصادر التاريخية: «بأنه قصد الى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة. وبعث العساكر إلى جيليقية مع يوسف بن بخت، فلقى ملكها برمند، وهزمه واثخن في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو، فبلغ ألبة والقلاع فأثخن فيها، ووطىء أرض بريتانية، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ومائة، ومع أخيه عبد الملك ابن عبد الواحد الى بلاد جيليقية، فانتهى الى استرقة، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء، ورجع أدراجه، واتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج، فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين»[1] وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم (١٧٦ـ ٢٣٨ هـ = ٧٩٢ـ ٨٥٢ م) عادت جيليقية لتؤرق الخليفة الأموي. وفي سنة ٢٢٤ هـ «خرج لذريق ملك الجلالقة، وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار اليه فرتون بن موسى وقاتله، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر، ثم سار الى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه، ثم سار عبد الرحمن في الجيوش الى بلاد جيليقية فدوخها وافتتح عدة

---

= (ASTURUM) وتسمى اليوم (MARIA . DE. LUGO) فأقام هناك، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي PENA DE PELAYO . وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي. فلم تبق كنيسة إلا هدمت، ولا ناقوس إلا كسر، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية.

(١) نفح الطيب ١ / ٣٢٧ ـ ٣٢٦.

حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم. وفي سنة ٢٢٦ هـ بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة، وانتهوا الى أرض بريتانية ، وكان على مقدمة المسلمين موسى ابن موسى عامل تطيلة، ولقيهم العدو، فصبر حتى هزم الله عدوهم. وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ( ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م) بعث العساكر الى جيليقية فدوخوها، وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق، وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا»[1]. وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٣ هـ = ٨٥٢- ٨٨٦م) ثارت طليطلة معتمدة في ثورتها على دعم جيليقية والبشكنس، فما كان من الأمير محمد الا أن قاد جيشه حيث التقى بقوات الشمال في وادي سليط «وقد أكمن لهم، فأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً. . . ثم غزا الأمير محمد بنفسه بلاد الجلالقة فأثخن وضرب وذلك في سنة ثلاث وستين ومائتين. . ». وفي عهد عبد الرحمن الناصر، أقوى خلفاء الامويين في الأندلس (٣٠٠- ٣٥٠ هـ = ٩١٢- ٩٦١ م) عادت جيليقية من جديد لممارسة دورها ضد ثغور المسلمين، وأوردت المصادر الاندلسية ما يلي: «وأخبار الناصر طويلة جداً، وقد منح الظفر على الثوار، واستنزلهم من معاقلهم، حتى صفا له الوقت، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء، فمن غزواته أنه غزا سنة ثمان وثلاثمائة الى جيليقية (وملكها أردون بن أذفونش) فاستنجد بالبشكنس والإفرنجة، وظاهر شانجة بن غرسية صاحب

---

(١) نفح الطيب ١ / ٣٤٥- ٣٤٦. و ٣٥١- ٣٥٢.

بنبلونة (أمير البشكنس) فهزمهم ووطىء بلادهم، ودوخ أرضهم، وفتح معاقلهم، وخرب حصونهم، ثم غزا بنبلونة سنة ٣١٢ هـ = ٩٢٤ م ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وأفسد العمائر . . . وفتح ثلاثين من حصونهم. ثم غزا (غزوة الخندق) سنة ٣٢٧ هـ [١] الى جيليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه. وصار يردد البعوث والصوائف الى الجهاد» ولم يلبث الجلالقة أن أظهروا الخضوع. وقصد ملكهم قرطبة لتقديم الولاء واظهار الخضوع والطاعة. وتكررت القصة ذاتها في زمن الحكم المستنصر- على نحو ما سبق عرضه. فقد تمردت جيليقية، ثم لم تلبث أن أعلنت الخضوع «ووفدت على الحكم ام لذريق بن بلاشك القومس بالغرب من جيليقية[٢] وهو القومس الأكبر. فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته، واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور».

**يظهر عرض (الوضع العام) أن جيليقية بقيت باستمرار مركز**

---

(١) نفح الطيب ٣٦٣/١ وفيه ص ٣٥٥ (غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمورة دار الجلالقة، وكان عبد الرحمن في مائة ألف أويزيدون. وكانت الوقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة ( RAMIRO ). فكانت للمسلمين عليهم، ثم تابوا بعد أن حوصروا وألجؤوا إلى المدينة. فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفاً. وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن أسحاق، وخوفه الكمين، ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم ان امية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من رذمير، وقبله عبد الرحمن أحسن قبول. وعمل عبد الرحمن بعد هذه الوقعة على تجهيز العساكر وتوجيههم مع عدة من قواده الى الجلالقة. فكانت لهم بهم عدة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية. وتلك هي الغزاة المعروفة باسم (غزوة الخندق).

(٢) لذريق بن بلاشك - أو بلشك RODRIGO « VALASQUES - وأمه هي اونسة ONECA ٣٨٥/١.

المقاومة، وأن كل ما تعرضت له لم يضعف من شأنها، أو يقلل من خطرها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأمر المثير هو تركز الهجمات بداية من عهد عبد الرحمن الداخل- صقر قريش- وحتى أيام الحكم المستنصر ومن بعده الحاجب المنصور قد تركزت على أطراف جيليقية، ولم تصل الى قلبها. وكانت التجربة المريرة التي تعرض لها عبد الرحمن الداخل (في غزوة الخندق) درساً قاسياً استوعبه القادة جميعهم بحيث لم يجرؤ بعد ذلك واحد منهم على التوغل عميقاً في مناطق جيليقية الوعرة. وبالاضافة الى ذلك كله. فقد كان استقبال الامراء من بني أمية لملوك جيليقية وليون بمثابة اعتراف منهم بشرعية قيام هذا الكيان وانفصاله عن الاندلس الاسلامية. وقد عرف المنصور من خلال تجاربه المريرة ومن خلال قيادته باستمرار للصوائف والشواتي أنه من المحال تحقيق الاستقرار أو ضمان الأمن مع بقاء جيليقية صامدة وقوية، الأمر الذي كان يساعد في كل مرة على اعادة تنظيم الجيوش وتجديد الصدام من (دار الحرب) وفقاً لما اصطلح عليه المؤرخون المسلمون. وقد استطاع الحاجب المنصور اخضاع كل المناطق، والوصول الى عواصم اقاليم الشمال، وكان لا بد له من تجاوز حدود الاقليم الصعب في جيليقية حتى يضمن الأمن في بقية الاقاليم التي أمكن له اخضاعها.

ب- الوضع الخاص

لم تكن جيليقية مجرد قاعدة مادية صلبة للعمل ضد الاسلام والمسلمين، بل كانت قاعدة روحية لها مكانتها المعنوية للتحريض على الثورة، ومن المعروف أنه كانت للكنيسة الاسبانية دورها في التحريض ضد المسلمين، وقد ظهر هذا الدور في مناسبات مختلفة من أيام حكم

الامراء الامويين، ووصل في بعض الاحيان الى استفزاز السلطة في عاصمة الدولة ذاتها (قرطبة). غير أن شدة حكام الامويين وصلابتهم أحبطت المخططات التآمرية، وعلاوة على ذلك فقد كان التسامح الاسلامي كافياً لاقناع المعتدلين، بفضائل التعايش بين المسلمين والمسيحيين، غير أن تطور الصراع دفع الكنيسة للبحث عن الحافز الديني الذي وجدته في (شنت ياقب) من جيليقية. وقد أورد مؤرخ اندلسي قصة غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب، وهي كالتالي: «مدينة شنت ياقب قاصية غليسية ـ جيليقية ـ هي أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، وللكعبة المثل الأعلى، فبها يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المَزُور فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر، وكان أخصهم بعيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه، وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفاً ببيت المقدس، فجعل يستقري الأرَضين داعياً لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها»[1]. وأخذت الكنيسة بعد ذلك في اضفاء هالة حول مكانة قبر (القديس يعقوب). وتحولت مدينة القديس (شنت ياقب) إلى مدينة مقدسة يقصدها الحجيج المسيحي من أوربا كلها، وجعل لها المركز الثالث بعد القدس

---

(١) ابن عذارى ـ البيان المغرب ٢ / ٤٣٩ ونفح الطيب ١ / ٤١٤.

وروما، وعندما جاء الفونسو الثانـي [1] بعث اسطورة القديس يعقوب بعثاً قوياً وجعل منه حامي شبه الجزيرة (الايبيرية) وسيدها. وتعلقت آمال أهل جزيرة الاندلس بحماية القديس لهم. وتخليصهم من المحن والكوارث التي قد يتعرضون لها. وقد وضعت طقوس خاصة، وتراتيل (أناشيد) حماسية لتمجيد القديس يعقوب، ودفع النصارى للتضحية والجهاد ضد الكفار ـ الذين هم المسلمون ـ وكان من خصوصية الوضع في جيليقية (وعاصمتها شنت ياقب) توافر المقاتلين الأشداء الذين لم يتعرضوا لهزائم منكرة من قبل، فكانت قدراتهم القتالية وروحهم المعنوية على درجة عالية.

ويظهر من خلال ذلك أن الوضع في هذا الاقليم لم يكن مشابهاً لما كان عليه الوضع في الأقاليم الاخرى، فلا الطبيعة الجغرافية، ولا الطبيعة الديموغرافية ـ السكانية ـ ولا طبيعة مسرح العمليات مشابهة لتلك الاقاليم التي اعتاد المجاهدون الاندلسيون التردد عليها والايغال فيها،وكان من طبيعة جهل المسلمين بهذا الاقليم تشكيل عبء اضافي

---

(١) الفونسو: ALPHONSE اسم حملته ثلاثة سلالات ملكية اندلسية، الأولى بدأت بالفونسو الأول المحارب ملك اراغون ونافار ١١٠٤ـ ١١٣٤ م والذي ضم اليه قشتالة بزواجه من اوراكا URRACA سنة ١١١٠ (ابنه الفونسو السادس) ثم جاء بعده الفونسو الثاني ملك اراغون (١١٦٢ـ ١١٩٦) وآخر هذه السلالة الفونسو الخامس الكبير ملك اراغون ١٤١٦ الذي فتح نابولي وحكم تحت اسم الفونسو الأول. وهناك سلالة الفونسو الكاثوليكية التي حكمت اسبانيا بداية من الفونسو الأول ملك اشتوريش ـ استوريا ـ (٧٣٩ـ ٧٥٧ م) وآخرها الفونسو الثالث عشر الذي اصبح ملكاً منذ ولادته وغادر اسبانيا سنة ١٥٣١ ومات سنة ١٩٤١. وهناك ايضاً سلالة الفونسو (الثالثة) التي حكمت البرتغال بألفونسو الأول سنة ١١٣٩ م وآخرها الفونسو السادس الذي ملك البرتغال (١٦٥٦ـ ١٦٦٧ م).

على القائد الذي يفكر في غزو الاقليم أو التعرض له. فاذا ما أضيف الى ذلك كله الانتكاسات السابقة، فستظهر أهمية الغزوة الكبرى التي حملت اسم (شنت ياقب).

## ج - مسيرة العمليات

كان من عادة قادة العرب المسلمين على ما تؤكد المصادر التاريخية، استخلاص دروس الحرب بعد كل موقعة أو معركة أو حملة، وتناقل هذه الدروس كابراً عن كابر، وجيلاً عن جيل، ولهذا فليس من الغريب أبداً أن يكون (الحاجب المنصور) قد استوعب كافة الدروس السابقة خلال مرحلة التحضير لحملته على اقليم جيليقية وتوجهه الى عاصمته (شنت ياقب) وعلى الرغم من صمت المصادر الاندلسية صمتاً تاماً عن مرحلة التحضير إلا أن الشواهد المتوافرة عن العملية ذاتها، وما تم فيها من استخدام القوى والامكانات المختلفة، وما تم خلالها من تنفيذ لاجراءات مختلفة، كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإعداد لهذه العملية والتخطيط لها قد استغرق وقتاً طويلاً جداً تم خلاله طرح كافة الاحتمالات فجاءت خطة العمليات وتنفيذها متقنة الى درجة مذهلة. ولقد كانت حملة (شنت ياقب) هي الحملة الثامنة والأربعين من حملات المنصور، ولهذا فقد وضع في الإعداد لها وفي تنفيذها كل خبراته السابقة علاوة على ما أمكن له استخلاصه من تجارب السلف. وهنا يظهر سؤال يفرض ذاته: **ترى هل كان الإعداد لهذه العملية والتخطيط لها من عمل الحاجب وحده، أم كانت هناك هيئة تشاركه في التخطيط والتنفيذ؟**. الاجابة المتوقعة هي أن طبيعة المنصور- وفقاً لما سبق عرضه- لا تسمح لأحد بتقرير أمر هام كمثل هذا الأمر الذي كان يعتزم تنفيذه في غزوته الى (شنت

ياقب). وهو أيضاً ما أشار اليه مصدر أندلسي بقوله: «كان المنصور اذا أراد أمراً مهمًا شاور أرباب الدولة الأكابر من خدام الدولة الأموية، فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الأموية عليه، فيخالفهم الى المنهج الذي ابتدعه، فيقضون في أنفسهم بالهلاك في الطريق الذي سلكه والمهيع الذي اخترعه، فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها سعده. فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها»(١). والذي لا يدع مجالاً للشك هو أن مخالفة الحاجب المنصور لهيئة اركانه لم يكن حباً (بالرفض) أو رغبة فيه، غير أنه أفاد من تجاربه ومن التجارب السابقة ما لم يفد غيره، وتوافرت له القدرات التي لم تتوافر لسواه، فكان من المتوقع تجاوز تلك الأفكار الجامدة التي لم تتح الفرصة للتطور واكتساب المعرفة التي وصل اليها المنصور الذي كان في تلك الفترة يناهز الخامسة والستين من عمره.

لقد كان من أسباب فشل الحملات السابقة على اقليم (جيليقية) التحرك البطيء الى مسرح العمليات بسبب طول مسافة التحرك مما كان يحرم قوات المسلمين من كل أثر للمباغتة، ومما يسمح لقوات جيليقية باتخاذ التدابير المضادة. وكان من أسباب فشل الحملات السابقة أيضاً عدم تناسب حجم القوى والوسائط التي تتطلبها العمليات مع حجم الاقليم ومع متطلبات مسرح العمليات. بالاضافة الى حاجة القوات لاختصاصات معينة تفرضها طبيعة الاقليم (المهندسين) وتأمين الامداد الاداري للقوات الضخمة. وعلى

---

(١) نفح الطيب ١/٥٨٨- ٥٨٩ وفيه عن مخالفة المنصور لما يقال له الحادثة التالية: «قيل للمنصور مرة ان فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه. فقال: أف لسعد لا يغطي على شؤمه، فاستخدمه، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء».

هذا الاساس وضع الحاجب المنصور مخطط حملته الى (شانت ياقب) في اطار حملة مشتركة برية ـ بحرية، مع حشد كل القوى والوسائط الممكنة لهذه الحملة، وتأمين كل متطلباتها الادارية. وذكر مصدر اندلسي [1] ما يلي: «كان المنصور تقدم في انشاء اسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبـي دانس من ساحل غرب الاندلس، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والاطعمة والعدد والاسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة». وهنا لا بد من القول أن الاسطول الاسلامي في الاندلس كان موزعاً على مجموعة من القواعد البحرية. وكان هذا الاسطول قد واجه تحديات كثيرة في المحيط الاطلسي والبحر الأبيض المتوسط (مثل مواجهة غزوات النورمان ـ الفايكنغ) وحماية القوافل التجارية الاسلامية، غير أنه لم يسبق أن استخدم في عمليات (برمائية مشتركة). وقد ساعد هذا الاستخدام الجديد ـ الحاجب المنصور ـ على حشد ونقل كميات ضخمة من الأسلحة والاعتدة والأطعمة، علاوة على تأمين الوسائط الضرورية لنقل الوحدات الهندسية ومعداتها الثقيلة لاقامة الجسور وتسوية الطرق وحفر الانفاق، علاوة على تأمين نقل وحدات المشاة (الرجالة). وهكذا، وبينما كانت القاعدة البحرية (قصر أبـي دانس) تضج بالاستعدادات للغزوة الكبرى، كانت العاصمة (قرطبة) تشهد استعدادات مماثلة في تجهيز قوات الفرسان وحشدها من كل أقاليم الأندلس. وعندما انتهت مرحلة الإعداد، أصدر الحاجب المنصور أوامره بالتحرك، وبدأت جحافل الفرسان بالانطلاق من قرطبة، بينما كانت القوات البحرية تغادر أبـي دانس وهي تمخر عباب محيط

---

(١) نفح الطيب ١ / ٤١٣ والبيان المغرب ٢ / ٤٣٩.

الأطلسي- وذلك في يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة هـ (٩٩٨م).

كان هدف المرحلة الاولى من تحرك قوة الفرسان هو الوصول الى (قورية)[١] وأما المرحلة الثانية فهي الوصول الى (غليسية) وفي هذه المدينة الواقعة على الحدود الجنوبية لمملكة ليون، توقف الحاجب المنصور لفترة قصيرة: «حيث وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغاورة سبيلهم» والأمر الواضح هو أن الحاجب المنصور قد طلب الى كافة القوامس حشد قواتهم للاشتراك في الحملة، وبذلك تكون قوات الحملة قد ضمت اليها النصارى من أحلاف المسلمين لقتال نصارى الشمال الذين يرفضون التعايش مع المسلمين.

حدد الحاجب المنصور مدينة (بورتو)[٢] لالتقاء القوات البرية وقوات الانزال البحري، وذكرت المصادر الاسلامية هذا اللقاء بما يلي: «خرج المنصور بموضع برتقال[٣] على نهر (دويرة)[٤] فدخل الاسطول في النهر الى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الاسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك، ووجه- المنصور- ما كان فيه من الميرة الى الجند، فتوسعوا في التزود منه إلى

---

(١) قورية CORIA من مدن كورة ماردة. وكانت تعرف قبل الفتح الاسلامي باسم CAURIUM

(٢) بورتو: PORTO (أو O. PORTO) مدينة برتغالية وبها ميناء ضخم على مصب نهر دويرة DOURO .

(٣) برتقال - (أو البرتغال). PORTUGAL.

(٤) نهر دويرة DUORO نهر يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي.

أرض العدو، ثم نهض منه يريد- شنت ياقب- فقطع أرَضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجات يمدها البحر الأخضر- المحيط الأطلسي- ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش- أو فلطارش- وما يتصل بها، ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده (وادي مِنيُة) [(١)] وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضَين أريضة، وانتهت مغيرتهم الى دير قسطان (أوقسان) وبسيط (بلنبو أو بلنبوط) على البحر المحيط، وفتحوا حصن (شنت بلاية) [(٢)] وغنموه، وعبروا سباحة الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ اليها، وانتهى العسكر الى جبل (مراسية) [(٣)] المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما، ثم نهر أيلة (او- أوللا) الى أن أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد صاحب القبر، تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعاً، وكان النزول بعده على مدينة (شنت ياقب). وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر

---

(١) وادي مينة: أو منهو (MINHO = RIO MINO)

(٢) شنت بلاية: SAN PELAYO.

(٣) مراسية: MORRAZO

يعقوب - ياقب - من يحفظه ويدفع الأذى عنه (ولم يجد المنصور بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب، فأمر بالكف عنه) وكانت مصانع شنت ياقب بديعة محكمة، فغودرت هشيمًا، كأن لم تغن بالأمس، وانتسفت بعوثه بعد ذلك سائر البسائط - السهول - وانتهت الجيوش الى جزيرة (شنت مانكش) فقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخيل مجال، ولا وراءها انتقال. وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل في طريقه القصد على (برمند بن أردون) ليستقر به عائثاً ومفسداً، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مجتازاً حتى خرج إلى حصن (بليقية)[1] من افتتاحه. فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم، وكتب بالفتح من بليقية، وكان مبلغ ما كساه في غزواته هذه لملوك الروم، ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي، وأحداً وعشرين كساء من صوف البحر، وكسائين عنبريين، وأحد عشر سفلاطوناً، وخمس عشرة مريشاً، وسبعة أنماط ديباج، وثوبي ديباج رومي، وَفَرْوَيْ فَنَك، ووافى جميع العساكر قرطبة غانماً، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين».

**لقد استغرقت المسيرة الشاقة من قرطبة وحتى أقاصي جيليقية (شنت ياقب) فترة أربعين يوماً تقريباً (ما بين ست بقين من جمادي**

---

(١) بليقية (في نفح الطيب ١/٤١٦) وفي البيان المغرب ٢/ ٤٣٩ مليقة، ولعلها لميقة = لاميجو LAMEGO .

الآخرة وليلتين خلتا من شعبان) ويمكن اعتبار هذه المدة رقمًا قياسياً في التحرك، وقد كان من المحال انجاز هذا التحرك بمثل هذه السرعة لولا التحرك البحري الذي أمكن بواسطته اجتياز اكثر من نصف المسافة بسرعة كبيرة (لقوات المشاة والمهندسين)، كما كان من المحال الوصول الى أقصى جيليقية لو لا ما قام به الفعلة (المهندسون) من اقامة للجسور وتمهيد للطرقات وشق للأنفاق الخ... وليست هذه هي الظاهرة الوحيدة المذهلة في العملية، فالدقة في تنظيم التحرك، وتحديد مكان اجتماع قوات الفرسان من كل الاقاليم في مكان وزمان محددين بدقة (القوامس) وكذلك تنظيم التقاء القوات البرية بالقوات البحرية في موعد دقيق، وتنظيم التعاون بين القوات المشتركة. كل ذلك مما أضفى على العملية طابعاً مميزاً، ولئن استطاع أهل (شنت ياقب) تلقي انذار مبكر حملهم على الفرار من وجه قوات الغزو، واللجوء الى الجزر القريبة والجبال المنيعة، فإن مدة هذا الانذار قصيرة بحيث تمت عملية الفرار بسرعة معادلة لسرعة تحرك قوات المسلمين. وتبقى الظاهرة المثيرة هي في تجنب قوات جيليقية لأي صدام مع قوات المسلمين. فاحتفظت لذلك بقوتها، فكان نصر (المنصور) من هذه الناحية نصراً (منقوصاً). ولم تحقق المباغتة كل أهدافها بإرغام قوات (جيليقية) على القتال والعمل على تدميرها.

# ٥ـ المنصور وبناء مجتمع السلم والحرب

ويعود الحاجب المنصور من كل غزوة من غزاته، وهو يحمل المزيد من أكاليل الغار، ولو أن قادة المسلمين لم يكونوا يفعلون كما يفعل أباطرة الرومان فيضعون أكاليل الغار على جباههم، إلا أن أكاليل غارهم كانت من نوع فريد، لقد كانت أكاليلهم هي رفع راية الاسلام، وتعزيز مكانة المسلمين، وبناء المجتمع الاسلامي القوي. ويعود الحاجب من كل غزوة من غزاته لينتقل من (الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر) فيعمل على متابعة البناء المتكامل للمجتمع الاسلامي. وقد حذا الحاجب المنصور في هذا المجال حذو أمراء بني أمية، الذين اشتهروا في التاريخ بالكفاءة العالية في بناء مجتمع السلم والحرب. فكان من بعض نتائج جهدهم سمو ذلك البناء الحضاري في المشرق والمغرب ويمكن هنا التوقف قليلاً لمطالعة بعض الشواهد التاريخية التي حفظتها الأوابد الأندلسية للحاجب المنصور ومنها: «كان المنصور بن أبي عامر يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة به، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل، فيعلم ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية لما وهى ـ ضعف أو تهاوى ـ من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره. وكان له

دخاله- تعيين ثابت- كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يضع في كل عام اثني عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة، ذات القصور والمتنزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة»[1].

عرف عن المنصور اهتمامه ببناء الانسان، وتأمين العدالة، والشواهد كثيرة منها القصص التالية: «وقف على المنصور رجل من العامة بمجلسه، فنادى: يا ناصر الحق، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك، وأشار الى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضل محله عنده، ثم قال: وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت، فقال له المنصور: أوَ عبد الرحمن بن فطيس- الحاكم والقاضي- بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ اذكر مظلمتك يا هذا. فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف، فقال المنصور: **ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية**، ثم نظر الى الصقلبي وقد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغراً، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك. ففعل، ومثل بين يديه. ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: **خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكراً. فقال له المنصور: قد انتصفت أنت، إذهب لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي، فتناول الصقلبي بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة»**.

---

(١) نفح الطيب ١ / ٥٨٤- ٥٨٥.

ومن ذلك أيضاً قصة (محمد) فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، حيث ذكر: «بأن المنصور احتاجه يوماً الى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن يبقي بن زرب، لحيف ظهر منه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يرده الى محبسه، ففعل ذلك على ما رسمه. وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور. وقال له: يا محمد! إنه القاضي، وهو في عدله، ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع منه، عد إلى محبسك أو اعترف بالحق، فهو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزالت عنه ريح العناية، وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجته، وزاد القاضي شدة في أحكامه»[1] ومن ذلك أيضاً ـ قصة فتاه الكبير المعروف (بالبورقي) مع التاجر المغربي حيث ذكر: «انهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه الى الجامع متظلماً من الفتى، فوكل به في الوقت من حمله الى الحاكم. فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه». ومما هو معروف أيضاً: «أنه كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الادب قد رقت حاله في الطلب، فتعلق بكتاب العمل، واختلف إلى الخزانة مدة، حتى قلد بعض الأعمال، فاستهلك كثيراً من المال، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف

---

(٦٧) نفح الطيب ١/٤٠٩ـ ٤٤١. والبيان المغرب ٢/٤٣٠ و ٢/٤٣٣ ـ ٤٣٤.

دينار، فرفع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له: يا فاسق، ما الذي جرأك على مال السلطان تنتهبه؟ فقال: قضاء غلب الرأي وفقر أفسد الأمانة. فقال المنصور: والله لأجعلنك نكالاً لغيرك، لِيُحْضَر كَبْل وحداد، فأحضرا، فكبل الفتى، وقال: احملوه الى السجن، وأمر الضابط بامتحانه والشدّة عليه، فلما قام فانشاء بقول:

أواه أواه وكم ذا أرى اَكثر من تذكار أواه
ما لامرىء حول ولا قوة الحول والقوة لله

فقال المنصور: ردوه، فلما رد قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت، فقال: حُلوا عنه كَبله، فلما حُلَّ عنه أنشأ يقول:

أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن تتبعه منة
كذلك الله اذا ما عفا عن عبدِه أدخله الجنة

فأمر باطلاق سراحه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه.

ومما حكي عن المنصور: «أنه عرض عليه اسم أحد خدمه في جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوقع على اسمه بأن لا سبيل إلى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية. وعرف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة، فأرق المنصور إثر ذلك، واستدعى النوم فلم يقدر عليه. وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق سراح الرجل. ويتوعده على حبسه، فاستدفع شأنه مراراً إلى أن علم أنه نذير من ربه. فانقاد لأمره. ودعا بالدواة في مرقده فكتب باطلاقه. وقال في كتابه: هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبـي عامر. وتحدث الناس زماناً بما كان فيه».

ومن أخبار المنصور القصة التالية: «من أعجب ما وقع للمنصور، وما رأيته بخزانة في كتاب ألفه صاحبه في الأزهار والأنوار، حكى فيه ترجمة، النيلوفر، أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأمر المنصور أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال (نيلُوفر) على ما تسع، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلُوفر، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة، وأرسل الى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة، بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة أطباق ذهب، وبيد خمسمائة أطباق فضة، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجمال شارتهم، ولم يدر ما المراد، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها، وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور، حتى صار كوماً بين يديه، فتعجب النصراني من ذلك، وأعظمه، وطلب المهاندة من المسلمين، وذهب مسرعاً الى مرسله، وقال: لا تعاد هؤلام القوم، فإني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها»[1]. ومن أخباره في الكرم والسخاء ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال: دفعت إلى ما لا أطيقه من نفقة في عرس ابنة لي، ولم يبق معي سوى لجام مُحَلًّى، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته بدار الضرب حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له، فابتهج بما

(١) الذخيرة - ابن بسام - ٤٠/٤ وما بعدها.

سمعه مني، وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده فملأ حجري، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه، وعملت العرس، وفضلت لي فضلة كثيرة، وأحبه قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبـي عامر الذروة».

وعندما أراد الحاجب المنصور توسيع جامع قرطبة، لم يحاول ارغام اصحاب المنازل المجاورة للمسجد واستملاكها بدون ارادتهم. ويحكى عنه ما يلي: «**لما عزم- الحاجب المنصور- على زيادة جامع قرطبة، جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتـى بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطط واطلب ما شئت، فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها. حتى أتـي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة، فقال: تبتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيت المال، فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن**»[1] وأصبح عدد من يخدم

---

(١)ذكر ابن عذارى ٤٢٨/٢ بشأن هذه الزيادة ما يلي: «كان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر والاحسان والقربة بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وأفريقية، وتناهى حالها في الحلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة، فبدأ ابن أبـي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد الى آخره، وقصد ابن أبـي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الاتقان والوثاقة، دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم- وأول ما=

الجامع بقرطبة في دولة ابن أبي عامر، ويتصرف فيه، من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً.

ومن مآثر الحاجب المنصور على ما أوردته المصادر التاريخية ما يلي: «لما ختن الحاجب المنصور أولاده، ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عدداً لا يحصر، فبلغت النفقة عليهم في هذا الاعذار، خمسمائة ألف دينار، وهذه مكرمة مخلدة، ومنه مقلدة، فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء»[1].

تلك هي بعض أخبار المنصور وفقاً لما أوردته المصادر التاريخية، وهي تشير بوضوح الى جهد الحاجب المنصور لبناء الجبهة الداخلية على أسس قوية ومتينة، فهو يحرص على تحقيق العدالة بين كل المواطنين في الدولة، لا فرق بين حاكم ومحكوم، وبين مواطن ومواطن، حتى لو كان المواطن من عناصر البلاط أو المسؤولين في الحكم والدولة، وحتى لو كان من حاشية المنصور ذاته. والحاجب المنصور بعد ذلك لا يعطي قطاع الخدمات أو المرافق العامة الأفضلية على حقوق المواطن، فبناء جامع قرطبة، وتوسيعه، قد فرض عليه إخراج المواطنين من منازلهم، غير أنه لم يحاول ارغام المواطن بقوة الدولة على التنازل عن حقوقه. وعمل على تعويضه بما فيه خيره، وبما

---

=عمله ابن أبي عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم من الثمن، وصنع في صحنه الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وهو - أعني أبي عامر- هو الذي رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران».

(١) نفح الطيب ١ / ٥٩٦.

يزيد على حقوقه، وبذلك تجنب الظلم الذي هو مفسدة للوطن والمواطن على السواء. وأدى ذلك يقيناً الى التلاحم في الجبهة الداخلية وضمان الاستقرار، الأمر الذي ساعد المنصور على تركيز كل جهده للقتال، وللتصدي للاعداء الخارجيين. فكان في ذلك الأنموذج الأمثل للتأكيد على أهمية التلاحم الداخلي في بناء قوة الدولة وقدرتها على رد طمع الطامعين وكيد الكائدين.





# الفَصْلُ الثّالث

## المنصور - وموقعه في التاريخ

١- المنصور- وحروب الاسترداد
٢- المنصور- والحروب الصليبية



# ١ـ المنصور وحروب الاسترداد

استولى الحاجب المنصور على (برشلونة) وحررها من سيطرة الفرنج سنة ٩٨٦ م. وتابع حروبه حتى تم له توحيد شبه جزيرة الاندلس، وظهر أنه لن يلبث طويلاً حتى يعبر جبال البيرينة، لينقل حروبه الى بلاد الغول (فرنسا) وذلك عندما وافته منيته مجاهداً في سبيل الله، سنة ١٠٠٢ م. واخذت قوة المسلمين في التمزق بعد وفاة المنصور، غير أن البحرية الاسلامية تابعت الصراع فهاجمت انتيب (عين الطيب)[١] سنة ١٠٠٣ م. و (بيزا)[٢] في سنة ١٠٠٥ م و١٠٠٦م. ثم هاجمت (ناربون)[٣] في سنة ١٠٢٠م. غير أن الهجوم

---

(١) عين الطيب (انتيب): ANTIBES . (مدينة) في الألب البحرية - ALPES - MARI ( TIMES دائرة غراس: GRASSE . وهي خليج على البحر الأبيض المتوسط. ومركز سياحي شتوي.

(٢) بيزا- أو- بيزو: ( PIZZO ) مدينة ايطالية لها خليجها على البحر الأبيض المتوسط. وفيها نفذ حكم الاعدام بالماريشال الافرنسي مورات MURAT ، صهر نابليون بونابرت، سنة ١٨١٥ م.

(٣) ناربون: ( NARBONNE ) مدينة فرنسية في مقاطعة أود: ( AUDE ) تقع على قناة روبين LA. ROBINE المتفرعة من نهر اود.

المنظم للمسلمين من الاندلس توقف فترة من الزمن، وبذا حان الوقت للمسيحيين لأن يقوموا بهجوم مضاد. ومن هنا فقد اعتبر معظم المؤرخين والباحثين بأن فترة حكم الحاجب المنصور هي نقطة التحول الحاسمة في تاريخ الاندلس الاسلامية، وأن أعمال الحاجب المنصور هي آخر ظواهر عظمة الاندلس الاسلامية، ونهاية عصر القوة الذي امتد حوالي قرن من الزمن بداية من حكم عبد الرحمن الناصر ومروراً بحكم ابنه المستنصر ونهاية بالحاجب المنصور. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن كثيراً من المؤرخين يعتبرون أن ما تبع حكم الحاجب من تمزق وضعف[1] هو الذي ساعد ممالك النصارى في الشمال على تجميع قواتها وحشد قدراتها لتنظيم الهجوم الكثيف ضد تلك المدن الاسلامية وإماراتها الممزقة، وأن ما تم احرازه من انتصارات ضد المسلمين بدعم من الكنيسة، قد شجع هذه الأخيرة على تنظيم الحروب الصليبية ورفع راياتها لا في الاندلس وحدها، وإنما في كل انحاء العالم الاسلامي، الأمر الذي انتهى بنقل الحرب الصليبية الى المشرق الاسلامي، واقامة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولقد استغرقت هذه التحولات زهاء قرن من الزمن. فقد توفي الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢ م. واخذ ملك نافار «شانجة اوسانكو الثالث» تأليف عصبة من الامراء المسيحيين لقتال المسلمين في سنة ١٠١٤ م وأظهر زميلاه ملكا ليون وقشتالة ميلاً لمساعدته، كما أظهر «وليم شانجة- سانكو» دوق غسقونيا أو «غاسكونيا»[2] حماسة كبيرة لهذا

---

(١) انظر في نهاية الكتاب الملحق بالممالك والامارات الاندلسية التي برزت بعد حكم الحاجب المنصور حتى زاد عددها فوصل الى (٢١) مملكة وإمارة متنافرة ومتناحرة.

(٢) غسكونيا ( GASCOGNE ) دوقيه افرنسية قديمة تنسب الى خليج غسقونيا وهو الخليج الذي يشكله المحيط الاطلسي بين فرنسا واسبانيا. وكانت دوقية غسقونيا حتى =

التحالف. أما ملك فرنسا «روبرت» فلم يظهر حماسة لهذا التحالف.
وعلى الرغم من ذلك فقد أمكن تحقيق بعض النجاح في دفع المسلمين نحو الجنوب. ولم يلبث هذا القتال الذي استعر ضد المسلمين في الاندلس أن اتخذ هيئة الحرب الصليبية والتي أصبح للبابوات الدور الاساسي في توجيهها. حيث أخذ هؤلاء في استثمار كل موقف لدعم فكرة الحرب الصليبية. وقد حدث في سنة ١٠٦٣ م. أن لقي ملك أراغون «روذمير الأول- أو راميرو» مصرعه على أيدي أحد المسلمين، وذلك عندما كان يقود حملة لإبادة المسلمين في إقليم «غرادوس»[١]. فبادر البابا الاسكندر الثاني الى اثارة الحماسة في اوروبا كلها بالتحريض على حرب المسلمين، ووعد ببذل الغفران لكل من يقاتل في اسبانيا من أجل الصليب، وشرع في تنظيم جيش لمتابعة عمل «روذمير» فقام «وليم مونتروي»[٢] وهو جندي نورماني يعمل بخدمة البابا، بتجنيد المقاتلين من شمال ايطاليا. وفي الوقت ذاته تولى «إبلس كونت روسي»[٣] شقيق «فليشيا»[٤] ملكة أراغوان، مهمة تجنيد المقاتلين من شمال فرنسا.
على أن أضخم جيش تقدم في تلك الفترة لحرب مسلمي الأندلس هو الجيش الذي حشده كونت اكيتانيا «جفري» الذي تولى قيادة الحملة بنفسه. واستطاع الفرنج الصليبيون بنتيجة هذه الجهود المكثفة انتزاع «بربشتر- أو باربسترو» من قبضة المسلمين ونهب ثرواتها واخراج

---

= مضيق جيروندة ( GIRONDE ) في الشمال ومدينة أوش AUCH هي عاصمة هذه الدوقية التي توحدت مع أكيتانيا سنة ١٠٥٢ فشكلت بحدودها مقاطعة البيرينة العليا (كما هي في الوقت الحاضر تقريباً).

(١) غـرادوس: GRADOS . (٢) وليم مونتـروي - WILLIAM OF MONTEREUIL (٣) كونت روسي ابلس: EBLES OF ROUCY (٤) فيليشيا: FLICIA

المسلمين منها، غير أن هؤلاء نجحوا في استعادتها منهم وطردوا الفرنج الصليبيين. وكانت هذه العمليات هي بداية لتدفق الفرسان والمقاتلين الإفرنسيين للحرب في الاندلس. وفي سنة ١٠٧٣ م. أعد «إبلس كونت روسي» حملة جديدة. ودعا البابا «غريغوري السابع» كل امراء المسيحية للانضمام اليها، فأعلن عند تذكيره العالم أن مملكة اسبانيا تنتمي الى المقر المقدس وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي الكفار - المسلمين - من الأراضي. وفي سنة ١٠٧٨، تولى هيو الأول دوق برغنديا(١) قيادة جيش لمساعدة صهره ملك قشتالة «الفونسو السادس». وفي سنة ١٠٨٠ م أعلن البابا «غريغوري السابع» تأييده الشخصي للحملة، التي قادها «جان جفري» ثم استمر الصراع في تصعيد مستمر خلال السنوات التالية إلى ان نجح الفرنج الصليبيون بالاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥ م. وإخراجها من قبضة المسلمين. وتبع ذلك حركة إفاقة اسلامية تولى قيادتها أمير قرطبة «المعتمد بن عباد» الذي لم يلبث طويلاً حتى وحد جهد ملوك الطوائف وازال بعضهم واستنجد بالمرابطين، فقاد يوسف بن تاشفين حملته الشهيرة، وخاض الى جانب المعتمد معركة «الزلاقة» سنة ١٠٨٦ م. وقابلت الكنيسة ذلك بإشهار الدعوة لاستثارة حماسة الفرسان المسيحيين وتوجيههم الى الاندلس لمقاومة المرابطين. وبذل

(٧٣) برغنديا: BURGONDES شعب جرماني، أقام في القرن الأول على الراين. وانتصر عليه الهون بقيادة عطيل «أتيلا» سنة ٤٣٧ م. ثم تحالف مع الرومان واقام في حوض الرون، وخضع لحكم الفرنجة FRANÇAISE سنة ٥٣٤م ومنح البورغنديون اسمهم الى الكيانات البورغندية: (BOURGONE) التي تشكلت في إطار دوقيات وممالك كانت اولها دوقية سنة ٥٣٤ م التي تلبث أن اندمجت بالميروفنجيين «الملوك الكسالى» سنة ٨٧٩ م عن طريق المصاهرة. وتطورت دوقية برغنديا الى مملكة، فقدمت الى فرنسا عدداً من الملوك. ابرزهم لويس الحادي عشر، وشارل المتهور (١٤٧٧ م).

البابا «إيربان الثانـي» المساعدة عن طيب خاطر، بل أنه أخطر الحجاج المتوجهين الى فلسطين، بأنه من الأفضل لهم أن ينفقوا أموالهم في بناء المدن الاسبانية التي دمرتها الحرب مع المسلمين. وظلت الحملات الموجهة الى اسبانيا وهي تجتذب من الشمال الفرسان المسيحيين المغامرين حتى نهاية القرن الحادي عشر. ولم تتوقف هذه الحملات المستمرة الا بعد الاستيلاء على وشقة سنة ١٠٩٦ م، وبربشتر سنة ١١٠١ م.

وهكذا لم يشرف القرن الحادي عشر على نهايته حتى تحولت فكرة «الحرب الصليبية» الى اتجاه عملي. ولقي الامراء والفرسان المسيحيين من تشجيع الكنيسة، ما حملهم على نبذ صراعاتهم الداخلية، ومنازعاتهم الصغرى، والتوجه بكل قواتهم الى أطراف العالم المسيحي لقتال المسلمين. يدفعهم الى ذلك الاغراء بالاستيلاء على ما يحصلون عليه من غنائم، وما يحوزونه من الاراضي التي يخرجون المسلمين منها، علاوة على المزايا الروحية. ولم تكن هذه المزايا الروحية ثابتة أو محددة. فقد وعد البابا اسكندر الثانـي بالغفران كل من اشترك في حملة سنة ١٠٦٤ م. بينما لم يبذل البابا غريغوري السابع الا التحلل لكل من لقي مصرعه في الحرب من أجل الصليب. وفي الحالات كلها، فقد تولت البابوية توجيه الحروب المقدسة، وهي التي شنتها، ورشحت قادتها. فكان لا بد بالتالي من خضوع كل البلاد التي يتم إخراج المسلمين منها لسلطة البابوية. وعلى الرغم من أن كبار الأمراء قد نزعوا الى البقاء بعيداً عن الحرب المقدسة، فإن الفرسان الغربيين أبدوا استعدادهم للاستجابة الى الحرب المقدسة. فكانت دوافعهم من بعض الوجوه دينية خالصة، إذ أنهم خجلوا أن يستمر القتال بينهم، وأرادوا أن يحاربوا من أجل الصليب. على أن الحرص

على امتلاك الأراضي، كان أيضاً من الدوافع التي جعلت الأمراء، ولا سيما في شمال فرنسا، يقبلون على الاشتراك في الحروب المقدسة، نظراً لما رسخ بها من نظام قصر الوراثة على الابن الأكبر. فكلما ازداد السيد عزوفاً عن توزيع أملاكه، وما يتبعها من وظائف، بعد أن أخذت تتركز وتتذاك حول قلعة مشيدة من الحجارة، كان لزاماً على الأبناء الأصغر أن يلتمسوا الرزق في كل مكان. فساد القلق، وظهر الميل للمغامرة بين طبقة الفرسان الإفرنسيين، وتزايد ذلك وضوحاً عند النورمان، الذين لم يكن قد مضى على تحولهم من حياة البداوة وقطع الطرق أكثر من أجيال قليلة. فإذا تهيأت الفرصة لربط الواجب المسيحي بامتلاك الأراضي في أجواء الجنوب، فإن ذلك سيكون حقاً من الامور المثيرة للاغراء. أما الكنيسة فإنه توافر لها من الحوافز والعوامل ما جعلها تطرب لما حدث من تقدم الحركة واضطرادها، إذ بات باستطاعتها استخدام هذه الحركة وتطبيقها في الطرف الشرقي للعالم المسيحي. ونقل الحرب الى المشرق الاسلامي في بلاد الشام. وهكذا فقد انطلقت شرارة الحرب الصليبية من أرض الأندلس. وكان نجاح القوات الصليبية حافزاً كبيراً لتطوير الصراع وتوسيع آفاقه. وفي الواقع، فإن البابا لم يجد أي صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالبلاد التي جرى فتحها في الاندلس، بعد اخراج المسلمين وإبعادهم عنها. ولم يكن باسبانيا من السلطات الكنسية ما يستطيع أن يناهض البابا أو يتحداه. غير أن نقل الحرب الى المشرق الاسلامي كان يتطلب توحيد جهد الكنائس الغربية المتمركزة في قبضة البابا مع تلك القائمة في القسطنطينية والاسكندرية. ومن هنا بدأت تتبلور فكرة الاتصال بهذه الكنائس وتنسيق التعاون معها، وقد أدت الجهود المبذولة في هذا الاتجاه الى اجراء الكثير من الاتصالات وذلك

قبل أن يتم عقد مؤتمرات عالمية تمثلت في مجمع «بياكنزا» سنة ١٠٩٥م ثم مجمع كلير مونت في سنة ١٠٩٥ م. وهي المجمعات التي أعلن فيها البابا «إيربان الثاني» الحرب الصليبية. والتي لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى أخذت جيوش الغرب الصليبية، بالتوجه إلى المشرق واقامة كياناتهم وإماراتهم فوق أرض بلاد الشام. وبدأ بذلك الصراع المرير الذي عرف منذ ذلك الوقت باسم «الحروب الصليبية».



# ٢- المنصور والحروب الصليبية

بدأ القرن الحادي عشر الميلادي بوفاة الحاجب المنصور «سنة ١٠٠٢ م». وانتهى هذا القرن باستيلاء الفرنج الصليبيين على بيت المقدس «سنة ١٠٩٩ م». فكان القرن الحادي عشر هو قرن الاستقرار الاستراتيجي الذي ضمن للقوات الصليبية الانتقال من الدفاع الاستراتيجي الشامل، إلى الهجوم الاستراتيجي الشامل. ولقد بدأ القرن الحادي عشر الميلادي والاندلس موحدة وقوية، وانتهى هذا القرن واندلس المسلمين قد انحسرت تقريباً الى ما وراء نهر الوادي الكبير. واستمر الصراع المرير بعد ذلك زهاء أربعة قرون فوق أرض الأندلس الاسلامية، وتحت راية الحروب الصليبية. ويظهر تحليل الاحداث التاريخية ومساراتها أن هذه الحروب التي انطلقت من أرض اندلس المسلمين لم تكن بعيدة عن أنظار خلفاء الاندلس الاقوياء، والذين كان الحاجب المنصور آخر من يمثلهم على الرغم من أنه لم يكن من سلالة الخلفاء. وهنا تبرز نقطة مثيرة، فحملات الحاجب المنصور قد دمرت كل الكيانات الصليبية، وتمكنت قوات المسلمين من اقتحام أصعب مناطق الأندلس وأشدها وعورة في حملة «شنت

ياقب» . ولم يكن ذلك الا برهاناً ثابتاً على تقويم خطورة هذه الكيانات على المسلمين. فلقد اكتفى عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله باخضاع حكام هذه الكيانات وجاء ابنه الحكم المستنصر بالله فسار على خطى أبيه وقبل من ملوك الشمال وأمرائهم الخضوع لحكم المسلمين في قرطبة. وكان هذا الخضوع «الاسمي أو الشكلي» هو أقصى ما أمكن تحقيقه في عصر القوة. فجاء الحاجب المنصور، ودمر هذه الكيانات وقضى على حكامها وملوكها، ومزق قواتها المقاتلة في ثمانٍ وأربعين حملة «أو اثني وخمسين» مما يشير الى أن الصراع كان مستمراً، وبمعدل أكثر من صائفة وشاتية في العام الواحد، ويعني ذلك بداهة وجود مقاومة ضارية ومتعاظمة باستمرار. وهذا يعني بكلمة أكثر وضوحاً أن إعلان الحرب الصليبية من قبل الكنيسة لم يكن الا نتيجة لهذه المقاومة القوية والمتعاظمة للمسلمين في الأندلس. وأن عجز هذه المقاومة وضعفها لم يكن الا بسبب تمزقها وعدم تنسيق التعاون فيما بينها، فجاءت الكنيسة بما يتوافر لها من إمكانات مادية وقدرة معنوية على إملاء هذا الفراغ القيادي، وتوجيه الفعاليات الحربية كلها في اتجاه واحد، للعمل ضد المسلمين. وهكذا فقد كانت الحرب الصليبية أسبق من تدخل الكنيسة المباشر والعلني. وتكشف المصادر التاريخية على أن دور كنيسة قرطبة على سبيل المثال في التحريض ضد المسلمين قد ظهر منذ الأيام الاولى للحكم الاموي في الأندلس. غير أن هذا الدور كان محدوداً، وثانوياً، بسبب قوة المسلمين وشدة عصبيتهم. فلما تعاظمت قوة المقاومة أمكن للكنيسة ممارسة دور أكبر، وذلك بالانتقال من العمل السري الى العمل العلني، ومن دور التحريض على الفتن الى إشهار الحرب الشاملة.
ويظهر من خلال ذلك أن دور الكنيسة قد تكيف في كل مرحلة مع ما

تتطلبه من طرائق مناسبة للعمل، حيث تركز الجهد في البداية على منع المسيحيين من الدخول في الاسلام، ومقاومة العروبة والاسلام. وفي مرحلة تالية تم تطوير الصراع باستثارة المولدين وسواهم من الذين أشهروا اسلامهم منذ الايام الاولى للفتح، وتعتبر ثورة «عمرو بن حفصون» التي انتهت في عهد عبد الرحمن الثالث أبرز نموذج لهذا الاتجاه. حتى اذا ما تم استنزاف قدرة المسلمين في الحروب الدائمة، اتجهت الكنيسة الى حشد المقاتلين من كل أنحاء اوروبا في خندق واحد للكيد للمسلمين والنكاية بهم وتنظيم الحرب الشاملة ضدهم.
لقد خاض الحاجب المنصور صراعاً صعباً طوال حياته، وهو يرفع راية الجهاد في سبيل الله، ويدرك بوعي تام أخطار السيل القادم في الشمال، وأمكن له توحيد جهد مسلمي الاندلس كلهم فاستطاع اقامة سد قوي في وجه الطوفان المتدفق عبر ممرات جبال البيرينة، وهذا ما حفزه إلى التفكير بعبور هذه الجبال، بعد أن أمكن له القضاء على كيانات النصارى في الاندلس. وهذا ما يؤكد تقديره الصحيح، لخطورة التحريض الخارجي القادم من شمال الاندلس وارتباط هذا التحريض بالصراع على أرض أندلس المسلمين. غير أن جهود الحاجب المنصور كانت تحتاج لعاملين اساسيين وهما التصعيد والاستمرار. وهما عاملان ارتبطا دائمًا بالتكوين الداخلي للمجتمع الاسلامي في الاندلس. وكان هذا التكوين مرتبطاً بدوره «بالشرعية» والقدرة على توحيد الجبهة الداخلية. وقد دمر الحاجب المنصور الشرعية بالقضاء على البيت الاموي، وصحيح أنه ظهر عدد كبير من الامراء الامويين بعد زوال حكم الحاجب المنصور، إلا أن هؤلاء لم يتمكنوا بعد زوال «الهيبة الشرعية» من إمساك الامور بقبضة قوية أو التأثير على مسيرة الأحداث. فحل التمزق محل الوحدة الداخلية.

وهنا تظهر النقطة التي طالما أثارت جدل الباحثين والمؤرخين الذين يعتبرون أن الحاجب المنصور هو المسؤول الاول عن كل ما أصاب مسلمي الاندلس بعد وفاته. وأن ما حققه للمسلمين من انتصارات في حياته لم يكن أكثر من بناء على الرمال لم تلبث أن اجتاحته عواصف الشمال. **فما هو دور الحاجب المنصور في ذلك؟ وهل كان جهده وجهاده في غير مصلحة المسلمين؟ وهل هو من النوع الذي اجتهد فأخطأ عندما دمر البيت الأموي في الأندلس، وهو البيت الذي حفظ لأندلس المسلمين وحدتها وقوتها؟** لا بد من القول قبل كل شيء أنه ما من خلاف على أن «للهيبة» و «الشرعية» دورهما في توحيد الأمة وتركيز جهدها وحشد قواها. ولكن هل كان الحاجب المنصور هو المسؤول عن الدمار الذي لحق بالمسلمين بعد زوال الحكم الاموي. هناك أكثر من نقطة يمكن التعرض لها لايضاح هذا الموقف: ١ـ إن ظاهرة التمزق أو بروز النزعات الاستقلالية لم تكن جديدة لا على مجتمع المسلمين في الاندلس أو على مجتمعات الغرب والشرق القديم والحديث، وهي ليست خاصة من خصائص مجتمع مسلمي الاندلس. فقد ظهرت قبل قيام الحكم الاموي، وظهرت أيام الحكم الاموي، ثم عادت للظهور بشكل حاد وقوي بعد زوال الحاجب المنصور. ٢ـ إن غياب الحاجب المنصور عن مسرح الاحداث، وزوال البيت الاموي من قرطبة، لم يمنع ظهور المحاولات المتكررة لاعادة تنظيم وحدة الاندلس سواء في عهد المعتضد ومن بعده المعتمد بن عباد، أو أيام المرابطين، ثم في أيام الموحدين. ٣ـ إن هذه المحاولات لاعادة بناء الوحدة الداخلية لم تفلح في ايقاف سيل الشمال، او الحد من أخطار الحرب الصليبية الشاملة على مسرح الاندلس، أو على مسارح الأعمال القتالية الأخرى في البر والبحر. يظهر من خلال ذلك أن دور الحاجب

المنصور كان كبيراً في تأخير مسيرة الأحداث واعاقتها اذا ما صح التعبير، شأنه في ذلك شأن الخليفتين اللذين سبقاه من الامراء الامويين «الناصر والمستنصر» وأنه بتدميره للممالك النصرانية في الشمال، قد اوقف الخطر الى حين. غير أن تعاظم القوى في الشمال قد انعكس على الصفحة الداخلية للاندلس فأعاقتها عن اقامة وحدتها. وعندما امكن اعادة هذه الوحدة بفضل زج قوات خارجية (من خارج مسرح العمليات الاندلسي) كالمرابطين والموحدين، كانت مسيرة الأحداث قد أخذت في التسارع ضد العرب المسلمين في أندلسهم الاسلامية.

لم يكن الحاجب المنصور هو سبب ما لحق بأندلس المسلمين من التمزق، بعد رحيله عن الدنيا وبعد قضائه على البيت الأموي، ولو أنه بازالة البيت الأموي، وبرحيله عن الدنيا قد ترك فراغاً قيادياً لم يتمكن أحد من إملائه مما أدى إلى استقلال كل حاكم اقليم أو أمير مدينة بأمور اقليمه وشؤون مدينته. وكان من المحتمل ظهور هذا التمزق حتى لو استمر حكم البيت الأموي، وظهر فيه أمراء لا تتوافر لهم قوة الناصر أو بأس المستنصر أو حزم الحاجب المنصور. وذلك على نحو ما حدث في عهود الامراء الامويين الذين تولوا حكم قرطبة خلال الفترة ما بين أيام عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) وأيام حكم عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله). **ويمكن تشبيه دور الحاجب المنصور (بالتعادلية) فهو قد استطاع تأخير ظهور هذا التمزق أو استفحال نتائجه وذلك بقضائه على قوة الكيانات النصرانية في شمال الأندلس، وهو من جهة اخرى ساعد على خلق الفراغ الاداري في الحكم بقضائه على البيت الأموي، وعدم تمكنه من تنظيم ادارة قوية**

تخلفه، فكان حكمه الفردي المستبد والذي يشبه الانظمة الديكتاتورية عاملاً مساعداً للبناء في اتجاه والهدم في اتجاه آخر، فكان الهدم معادلاً للبناء في آثاره ونتائجه. غير ان معالجة الموقف من هذه الناحية، ووفقاً لهذا المبدأ التعادلي، يعني أن الحاجب المنصور لم يقدم في حياته للاسلام والمسلمين شيئاً، على الرغم مما بذله من الجهد طوال حياته، وعلى الرغم مما قدمه المسلمون من تضحيات طوال فترة حكمه. فهل كان حكم الحاجب المنصور بلاء - أو تجربة - عابثة في حياة حكم الأندلس الاسلامية... تتجاوز القضية هنا حدود التحليل الموضوعي للاحداث ونتائجها، لتدخل في حدود قضية محاكمة هذه الاحداث، وتتطلب المحاكمة العادلة وضع هذه الأحداث في اطاريها الزمني والمكاني، وحتى حدود العامل الشخصي. وقد يكون من المحال إجراء محاكمة عادلة، لا بسبب النقص في المادة التاريخية المتوافرة، وإنما بسبب صعوبة حشد كل المقدمات والعوامل التي أدت الى ظهور الحاجب المنصور، وهي عوامل تتجاوز في كثير من الاحيان، على نحو ما سبق عرضه، عوامل الطموح أو الطمع، لقد كانت مزيجاً متشابكاً ومعقداً لم تبتعد عنه لعبة القدر كثيراً، أو عامل الصدفة أو الحظ كما يحب بعض المؤرخين تسميته، لقد كان الحاجب المنصور طموحاً حتى أبعد حدود الطموح، وتوافرت له من القدرات والإمكانات ما ساعده على تحقيق مطامحه خطوة فخطوة، وبحذر كبير، حتى دانت له الاندلس وخضع له رجالها الأشداء، وقد وظف ذلك كله لخدمة قضية الجهاد في سبيل الله، وما من مجال لمحاكمته على طموحه الشخصي طالما أنه استخدم هذا الطموح لخدمة قضية عامة، كما أنه ما من مجال لمحاكمته على جنوحه أو نوازعه طالما أنها لم تؤد بالمجتمع الاسلامي الى

انحراف ثقيل يبتعد به عن قضية الدفاع عن هدفه الأساسي. وقد يكون من غير العدل، ومن غير الطبيعي أيضاً إدانة رجل التاريخ الحاجب المنصور- عن نتائج لم يكن أحد يتوقعها أو يحسب حسابها، فلو ظهر في البيت الأموي أو من أبناء الحاجب المنصور من يضارعه في قدرته وكفاءته، لكان من المحتمل أن تتغير تلك النتائج. وهنا تعود كلمة «لو» لتتناقض مع متطلبات المحاكمة العادلة، حيث يصبح من المحال طرح الاحتمالات على أساس الافتراضات النظرية المتمثلة بأحرف «لو- واذا- الخ..». وتبقى بعد ذلك الحقائق الموضوعية الثابتة. لقد عاش الحاجب المنصور حياته مجاهداً في سبيل الله، وبذل قدر المستطاع، بل وأكثر مما هو مستطاع لرفع راية الاسلام والمسلمين. ونجح فيما عمل له حتى أبعد حدود النجاح، ومضى الى لقاء ربه راضياً مرضياً عما قدمه في دنياه من أجل آخرته، فحصل على الحسنيين ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

# الفصل الرابع

## المنصور- وموقعه من فن الحرب

١- في السياسة الاستراتيجية
٢- في أفق العمليات (مبادىء الحرب)
٣- في ادارة الحرب (قوات المسلمين)
٤- الحاجب المنصور وقوات المسلمين
٥- أندلس المسلمين بعد الحاجب المنصور (ملوك الطوائف)
٦- الكلمة الاخيرة في الحاجب المنصور



# ١ـ في السياسة الاستراتيجية

كان لا بد للحاجب المنصور وهو يمضي لتنفيذ مطامحه، من تغيير مجموع العلاقات السياسية والاجتماعية . فقد كانت جذور البيت الأموي راسخة وعميقة، وكانت الى ذلك تستمد سلطتها الدينية والدنيوية من قرابتها برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أصالة محتدها، وقد أضيف الى ذلك حصالة تلك الامجاد التي بذل لها البيت الاموي جهداً لا ينكر من أجل نصرة الاسلام والمسلمين، ومن أجل تعزيز مكانة العرب حملة رسالة الاسلام. وصحيح أن الحاجب المنصور ينتمي لأصل يستحق أن يفاخر به. لكنه لا يستطيع أن ينافس به الامويين أو يضارعهم، والمسلمون إلى ذلك لا يقيمون كل الثقل لأصالة المحتد وشرفه، غير أنهم لا ينكرون فضله في الوقت ذاته. ومن هنا كان على الحاجب المنصور شق طريقه الصعب وسط متاهات شائكة، وتجاوز عقبات عسيرة. غير أن اسلوب الحزم، والقضاء دونما شفقة أو رحمة على تلك العقبات قد ساعده على تذليل الصعوبات. ويفسر ذلك سبب قسوته في معاملته للحاجب المصحفي، وكذلك نبذه للسيدة صبح البشكنسية زوجة الحكم المستنصر والتي كان لها دور

كبير في التمهيد له ودعمه ومساعدته خلال مرحلة ظهوره وارتقائه. وهذا ايضاً يفسر ابتعاده عن الزهراء،وإقدامه على بناء الزاهرة. و لقد كان لزاماً عليه وهو يمضي لاقامة العلاقات الجديدة، أن يبتعد عن كل ما يذكر الناس بالعهد الاموي ورجال العهد الاموي، وهو اذا اضطر بتأثير ضغط الرأي العام أن يعتمد على شرعية البيت الأموي الممثلة بولي العهد، فهو يلجأ الى الاستخدام الرمزي عبر احتفالات حذرة ومنظمة بدقة تضفي على الحاجب المنصور من الهيبة والقدرة باكثر مما تذكر بشرعية البيت الاموي وهيبته. ولم يكن اعتماد المنصور على تغيير الشكل بأكثر أهمية من تغيير المضمون حيث تركز الجهد على اقامة علاقات عامة جديدة تعتمد على الولاء الشخصي، وعلى تحقيق التوازن بين الترغيب والترهيب، فهو يصاهر أقوى رجال العرب في الأندلس «غالب» وهو في الوقت ذاته يشد الخناق على مناوئيه، وقد يكون من الصعب تحقيق النجاح في تطبيق مبدأ التوازن هذا- بين العصا والجزرة كما يقول المثل العامي- لو لا معرفة الحاجب المنصور الدقيقة بالرجال، ولو لا تقويمه الصحيح لقدرة مراكز القوى المختلفة وما يتوافر لها من الامكانات.

**لقد عمل امراء البيت الأموي، في الشام والاندلس، على تثبيت اسس سياسة استراتيجية واضحة، تعتمد على العقيدة الدينية الاسلامية، وعلى المذهب العسكري المشتق عنها. فكان في جملة الاسس الاستراتيجية بناء القاعدة القوية والصلبة، وتدعيم العنصر العربي دعامة الاسلام، واستخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر للوصول الى الهدف المباشر، واتباع أساليب الحرب التشتيتية، وتطوير أساليب الحرب الوقائية ووضوح الهدف. وقد جاء الحاجب المنصور ليعمل على تطبيق هذه الأسس العامة في السياسة**

**الاستراتيجية لا في تطوير علاقات المجتمع العربـي الاسلامي في أندلس المسلمين فقط، وانما أيضاً في التعامل مع أعداء المجتمع الاسلامي الاندلسي- في الداخل والخارج على السواء -.**

لقد عمل الحاجب المنصور على بناء القاعدة القوية والصلبة من خلال اعادة التنظيم الشامل لأقاليم الاندلس وحشد كل القوى والامكانات ضد العدو الخارجي، وتوحيد كل القدرات المتوافرة تحت راية الجهاد في سبيل الله، فعاد بذلك لتأكيد العلاقة الجدلية الثابتة بين الانتصارات الخارجية والانتصارات الداخلية، وهو ما سبق للناصر لدين الله- عبد الرحمن الثالث- أن أبرزه بشكل واضح، غير أن الحاجب المنصور قد تجاوز في هذا المجال كل من سبقه، سواء عن طريق قيادة كل الغزوات بنفسه، أو عن طريق تكثيف الاعمال القتالية بأكثر من صائفة وشاتية في السنة الواحدة. وكان امراء الاقاليم وحكام المدن مرغمين على مجاراة الحاجب المنصور، والخروج معه للجهاد، إذ لم يكن من المعروف تخلف أحد طالما أن أمير الاندلس يخرج بنفسه لقيادة الجهاد. فصرف بذلك الجميع عن التفكير الا بالحرب والاستعداد لها. وكانت الانتصارات الخارجية مضمونة بفضل تكثيف حشد القوى وبفضل الكفاءة القيادية للقوات، وكانت هذه الانتصارات تنعكس بدهياً على الجبهة الداخلية فتزيدها تماسكاً وتلاحماً. وهنا يمكن للقول المشكك الزعم بأن الحاجب المنصور إنما قصد بتصعيد الاعمال القتالية صرف أنظار قادة الاندلس وحكامها وامرائها عن استبداده الشخصي بالسلطة وتفرده بالحكم والاجهاز على الشرعية. غير أنه، وكما سبقت الاشارة اليه، من غير المقبول محاكمة الحاجب المنصور على النوايا، فالاعمال التي قام بها هي دونما ريب قد عززت من مكانة العرب المسلمين، ورفعت من قدر

الاسلام، ودعمت من قدرة اندلس المسلمين واضعفت من كيانات «نافار وليون» بل انها قضت عملياً على هذه الكيانات. وعند هذه النتائج يمكن تجاوز كل النوايا، والابتعاد عن كل النظريات والفرضيات.

كانت أندلس المسلمين غنية بالرجال الاكفاء من المسلمين، من زعماء قبائل العرب والبربر، ولم يكن اخضاع هؤلاء بالامر السهل. لا سيما وأن معظمهم يرتبط بروابط قوية بالبيت الأموي. وذلك وحده كاف لابراز قدرة الحاجب المنصور وكفاءته القيادية العالية التي مكنته من اخضاع الرقاب لحكمه، بحيث لم تظهر طوال فترة حكمه بادرة تنم عن ظهور تمرد مضاد أو ثورة معارضة.

ولقد استطاع الحاجب المنصور بناء القاعدة القوية والصلبة في الاندلس، لا بفضل الانتصارات الخارجية وحدها، وإنما بفضل العمل الدؤوب والمستمر لنشر ألوية العدالة وتطبيق قواعد الشريعة الاسلامية. إذ كان من المحال ضمان الاستقرار طوال فترة حكمه وتثبيت دعائم النظام الذي اقامه بإشغال المسلمين بالجهاد فقط، فكان الجهد المبذول متكاملاً، لم يسقط من حسابه أهمية تحقيق العدالة، والقضاء على الظلم، والاستماع الى أصحاب المظالم، وايصال أصحاب الحقوق الى حقوقهم. وهو ما أبرزته السيرة الشخصية للحاجب المنصور الذي كان يجلس بنفسه للقضاء في المظالم، والاستماع الى أصحاب الشكاوى، والنظر في صغائر الأمور وكبائرها. وبقي الحاجب المنصور نموذجاً فريداً في مجال اقامة القاعدة القوية والصلبة. فإذا كان للبيت الاموي حجته في اقامة الحكم الاسلامي، واذا كان للحكم العباسي نظريته وشرعيته الاصلية، واذا كان للفاطميين بدورهم حجتهم الذرائعية، فقد جاء الحاجب المنصور

بنموذج يرسل بظلاله إلى الافق الحديث، حيث يبقي على الشرعية اسمياً، ويستثمر الوصاية عملياً، ليقيم حكمًا على قاعدة «الشرعية» ثم ليسحب هذه الشرعية من تحت أقدام أصحابها. كل ذلك دونما اثارة ضجيج مفتعل، ودون أي استثارة للخواطر. غير أن هذه الخواطر تجد في بعض المناسبات الفرصة لاظهار نقمتها، وعند ذلك لا يحاول الحاجب المنصور اللجوء الى القهر او القمع المباشر، وإنما يسير كعادته مع التيار، ليحوله بعد ذلك لدعم قاعدته الخاصة. ويدل ذلك على ما تفرد به الحاجب المنصور من مرونة كبرى في تحركه القيادي. بقدر ما يدل ذلك أيضاً على ثبات المنصور عند مقصده وليس ذلك الا نتيجة لوضوح الهدف، وتحديد الوسائل التي تخدم هذا الهدف، بحيث لا تتمكن العقبات والاعاصير من صرف الحاجب المنصور عن هدفه أو الحيدان عن مقصده، مهما بلغت تلك العقبات من الشدة، ومهما بلغت الأعاصير من القوة. وتلك هي الفضيلة الثانية التي ساعدت المنصور على بلوغ ما طمح الى نيله، والارتقاء الى ما أراد الوصول اليه.

لقد أراد الحاجب المنصور منذ قصد قرطبة أن يمارس دوراً أكبر من مجرد تعليم الاطفال، وأجل من البقاء في زوايا البلاط الثانوية. فبذل جهده للهيمنة على مراكز القوى، عبر سيدة القصر الاولى.. «صبح البشكنسية زوجة الحكم المستنصر ووالدة ولي العهد هشام» وكان يتابع عبر مسيرته الشاقة دراسة ثقل مراكز القوى ونقاط ضعفها وقوتها، مع دراسة الاساليب الكفيلة بالوصول الى المركز الاول في القصر، وتحقق له ما يريده عندما أصبح أحد حاجبي هذا القصر، غير أن ذلك لم يكن هدفه، ففرض نوعاً من الارهاب الفكري والنفسي على كتاب القصر ورجال البلاط والحاشية حتى أمكن له السيطرة على

أمور الدولة ولم يبق لمنافسه المصحفي من مركز «الحاجب» إلا الاسم.
وجاءت بعد ذلك الظروف المناسبة بموت الحكم المستنصر، فاندفع بجرأة وإقدام لتحقيق هدفه التالي، ومضى بعزيمة لا تلين وهمة لا تعرف التعب او الوهن، يصل أيامه بلياليه، وهدفه ماثل أمام عينيه أبداً، لا يحيد عنه قيد أنملة، ولا يبتعد عنه خطوة واحدة. واذا كان الحظ، أو لعبة القدر، قد خدما الحاجب المنصور في تجاوز العقبات، غير أنه لم يكن ليركن يوماً الى هذا الحظ أو يعتمد عليه، فكان يعمل باستمرار لتحقيق الاقتران الناجح بين الحظ وبين العمل الهادف. وهكذا كان الحاجب المنصور، مزيجاً مميزاً من عوامل النجاح، يتشابه في كثير من ملامحه مع تلك النماذج الفردة التي برزت في المشرق الاسلامي أمثال: صلاح الدين الايوبي والمظفر قطز والظاهر بيبرس وأحمد بن طولون وأضرابهم ممن وضعوا سيفهم في خدمة الاسلام، واعتمدوا على كفاءتهم وقدراتهم لممارسة ادوارهم التي لم تكن يد القدر بعيدة عن صناعتها والمشاركة في ابرازها. والمثير في تشابه هذه النماذج هو أنها ظهرت على كاهل أنظمة ثابتة وراسخة، وكلها اعتمدت على الشرعية الاسمية لممارسة سلطتها الفعلية، وكلها تميزت بما يمكن أن يطلق عليه صفة «الغدر بالقيم الاخلاقية» غير أنها كلها وجدت لها غطاء قوياً في رفع راية الجهاد في سبيل الله والاخلاص الذي لا مثيل له في الدفاع عن قضية الاسلام والمسلمين، ثم إن هذه النماذج القيادية جميعها قد برزت خلال فترة الحروب الصليبية حيث كانت الحماسة للجهاد والادارة الناجحة للحرب هي العامل الاساسي، إن لم تكن العامل الوحيد لتقويم الحكام ودعمهم أو التخلي عنهم، ويعتبر ذلك شاهداً اضافياً يؤكد أن هدف الحاجب المنصور من الحرب لم يكن لدعم سلطته أو صرف أنظار المسلمين عن

انتهاكاته للشرعية، وانما كان تلبية للحاجة واستجابة مناسبة للظروف التي كـان يعيشها المسلمون فـي الاندلس. كما أن التفاف المسلمين حول الحاجب المنصور وتأييدهم له إنما يبرز أيضاً إدراك الجميع لأخطار كيانات النصارى في شمال الاندلس. ولا ريب أن ادراك الحاجب المنصور لما كان يتفاعل في وسط المسلمين، الامر الذي تجاهله الحاجب المصحفي، كان العامل الاساسي في نجاح المنصور وسقوط المصحفي. ويبرز ذلك دور الحاجب المنصور القيادي الذي كان يدرك هدفه بصورة جيدة، ويستثمر أخطاء الآخرين من أجل دعم أهدافه وإسقاط الآخرين الذين يتحركون على مسرح الاحداث دونما هدف واضح يحركهم أو تقويم صحيح للامور يستثير حماستهم. ولم يكن باستطاعة الحاجب المنصور اكتشاف أخـطاء الآخرين وتقـويمها واستثمارها لولا رؤيته الواضحة للهدف، ولولا اعتماده على قيم ثابتة تتوافق وهذا الهدف. ولم يعد من الصعب على الحاجب المنصور وهو يتمتع بمثل هذه الميزة من الرؤية الواضحة للهدف، أن يختار السياسات الاستراتيجية المناسبة لمعالجة مواقف الصراع المرير التي كان يجابهها بصورة مستمرة.

**كانت استراتيجية الهجمات الوقائية، أو الضربات الاجهاضية المسبقة، وفقاً للمصطلحات الحديثة هي السياسة الاستراتيجية التي اعتمدها الحاجب المنصور وطورها باكثر مما عرفتها الاندلس من قبل. ومن المعروف أن تنظيم الصوائف والشواتي ايام الامويين في الشام والاندلس كانت هي الترجمة العملية الأمينة لمفهوم الهجمات الوقائية الذي يعتمد على إشغال العدو بنفسه. وعدم تمكينه من غزو ثغور المسلمين، وضرب استعداداته العسكرية حتى لا تشكل هذه الاستعدادات تهديداً لبلاد المسلمين. وقد عمل الحاجب المنصور على**

تكثيف الصوائف والشواتي حتى أمكن له القضاء على كيانات النصارى في الشمال. وكانت غزوته لجيليقية «شمال غرب الاندلس» هي أفضل نمـوذج لتكثيف الهجمات الوقائية، فقد بقيت هذه المنطقة الصعبة، منيعة على المسلمين، حتى قام الحاجب المنصور بغزوها. وقد كان لهذه الغزوة هدفها المعنوي الى جانب هدفها المادي. فقد كانت جيليقية قاعدة الثورة المضادة للمسلمين. وكانت قيادات القوات الثوروية قد اتخذت من قبر القديس يعقوب رمزاً معنوياً يضمن لها الحماية ضد الاعداء، المسلمين، فكان غزو المنصور لهذه القاعدة. ووصوله الى قبر القديس، وحمايته من الدمار، برهاناً يدحض مزاعم النصارى بقدر ما يدعم من فكرة الجهاد. وكان لذلك أثره النفساني دونما ريب في اقناع قوات المقاومة بعجزها عن مجابهة المجاهدين في سبيل الله والذين عملوا باخلاص لقضية الجهاد.

**لقد وضع الامام علي بن أبـي طالب فكرة الهجمات الوقائية بقوله: «اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم بعقر دارهم إلا ذلوا». وطبق معاوية بن أبـي سفيان هذا المبدأ حتى وصل الى عاصمة البيزنطيين «القسطنطينية» وحاصرها مرات عديدة، ولم يكن اهتمامه بتنظيم القدرة البحرية واطلاقها للجهاد في البحر إلا تطويراً لهذا المفهوم ذاته. وأصبحت استراتيجية الهجمات الوقائية من الأسس الثابتة في جهاد بني أمية، ثم طورت هذه السياسة الاستراتيجة ايام عبدالرحمن الثالث ـ الناصر لدين الله ـ بحيث تم غزو عواصم ليون ونافار، غير أن الحاجب المنصور هو الذي ارتفع بها الى اقصى فاعليتها، حتى لم يظهر هناك من ينافسه في هذا المجال، وكانت غزوة شنت ياقب «اقليم جيليقية» تجسيداً لاستخدام القدرة البرية والقدرة البحرية في تصعيد الهجمات الوقائية والوصول بها الى منتهى غايتها.**

ولقد انهارت هذه السياسة الاستراتيجية بموت الحاجب المنصور مما أتاح لنصارى الشمال فرصة التقاط انفاسهم واعادة تنظيم صفوفهم. واستخدام هذه السياسة الاستراتيجية ذاتها ضدهم. فكان ذلك بداية الانهيار الكبير الذي ادى الى تصعيد الحروب الصليبية على كل جبهات المسلمين في المشرق والمغرب. وعند هذه النقطة المحددة يظهر الدور الكبير للحاجب المنصور في تاريخ مسلمي الاندلس. فقد كانت الحرب الصليبية غير المعلنة، وغير الشاملة، قد أخذت أبعاداً خطيرة على مسرح الاعمال القتالية الاندلسية، وبات من المحال الاعتماد على الاعمال القتالية التي تأخذ الصفة الرتيبة «الروتينية». وكان لا بد من تصعيد يقابل الاخطار المحتملة والمتوقعة، وقد أدرك الحاجب المنصور بثاقب بصيرته ما ينتظر مجتمع المسلمين من أخطار إن هو لم يبادر بسرعة لتطوير استراتيجية الهجمات الوقائية، فمضى للجهاد بعزيمة صادقة، وامضى حياته صابراً محتسباً حتى ضمن الحياة الآمنة لمجتمع المسلمين طوال فترة حكمه. وحتى أعاد للأندلس ما كانت عليه من البأس والقوة خلال الايام الاولى للفتح الاسلامي. ولعل هذه المأثرة وحدها كافية لتجاوز كل ما لصق بالحاجب المنصور من اتهامات، وما قام به من انتهاكات للشرعية. ولقد عرف مسلمو الاندلس هذه الحقيقة، فلم يكن دعمهم للحاجب المنصور إلا تأييداً للهدف الذي عمل له الحاجب المنصور طوال حياته وهو رفع راية الاسلام والمسلمين، والتصدي بحزم لأعداء الدين.

لم تكن قوات النصارى في ممالك الشمال موحدة القيادة، موحدة الاهداف، مما دفعها الى التناحر وحتى الاقتتال فيما بينها في كثير من الأحيان. وقد أفاد الحاجب المنصور من ذلك حتى أبعد الحدود، فجابه قوات الاعداء وقياداتهم الممزقة بقيادة واحدة، وقابل أهدافهم

المتنافرة بهدف واحد وواضح، وتجاوز ذلك الى طرائق العمل، فخاض حروبه ضدهم بأساليب الحروب التشتيتية بحيث لم يترك لهم الفرصة لتنسيق التعاون فيما بينهم وتكتيل القوى وحشدها في خندق واحد ضد المسلمين. وعند هذه الظاهرة تبرز أهمية تصعيد الاعمال القتالية وتكثيف الصوائف والشواتي. إذ أن ذلك قد مكن الحاجب المنصور من توجيه الضربات الوقائية الى مراكز القوى في الشمال بتوقيت واحد أو بمجموعة من الأعمال القتالية المتتالية التي شغلت كل مركز من مراكز القوى بأمور الدفاع عن نفسه وعن كيانه وأرض بلاده، فاستطاع الحاجب المنصور احراز التفوق الساحق على قوى العدو المتفرقة، وكانت في ذلك العامل الأول فيما حققه من نجاحات وما أحرزه من انتصارات. وعند هذه الظاهرة أيضاً يبرز الدور المزدوج الذي برز خلال المرحلة التالية لحكم الحاجب المنصور، حيث فقدت الاندلس قيادتها الموحدة والواحدة. ومقابل ذلك استطاعت الكنيسة توحيد كل الجهود للعمل تحت قيادة واحدة وموحدة في أهدافها وطرائق عملها. وتبع ذلك بداهة التحول عن الأهداف، فانصرف قادة ملوك الطوائف الى أهدافهم المحدودة التي تبتعد عن واجب الجهاد الى وظيفة دعم الحكم المحلي، ولم يكن باستطاعة هذا الحكم المحلي الصمود للتحديات الخارجية، فلم يلبث ملوك الطوائف أن خضعوا لملوك نصارى الشمال، وفقدوا حرية عملهم السياسية والعسكرية. ولقد كان للكنيسة دورها، لا في حشد القوى وارسالها الى ميادين القتال، ولا في استثارة الحماسة لشن الحرب ضد المسلمين، وإنما في توحيد القيادة تحت سيطرتها وإشرافها، وهذا هو الدور الاساسي والحاسم فيما حدث من تحولات بنتيجة غياب القيادة الواحدة التي مارسها المنصور طوال حياته. ولقد اتفقت

النظريات الحديثة في فن الحرب على اعطاء مبدأ وحدة القيادة الأفضلية الاولى على كل الاسس الاستراتيجية للحرب. ووضعته بعض المذاهب العسكرية ـ كالمذهب الصيني ـ كشرط أول ـ أو مبدأ أول ـ في مبادىء الحرب. وقد برهن المذهب العسكري الاسلامي على صحة هذا المبدأ أو أكد أهميته طوال فترات الفتوح. وعرف المسلمون منذ الأيام الاولى للفتح أهمية مبدأ وحدة القيادة. فحرصوا على الالتزام به وتطبيقه والاخلاص له. وجاءت تجربة الحاجب المنصور لتبرز بشكل واضح أهمية هذا المبدأ في شكلين متناقضين، أولهما عندما نجح الحاجب في زج كل قوات مسلمي الاندلس تحت قيادته، وثانيهما عندما فقد المسلمون القدرة على العمل تحت قيادة واحدة. وهذا مما انعكست آثاره على طرائق الحرب، فبينما كان المسلمون تحت قيادة الحاجب المنصور يطبقون استراتيجية الحروب التشتيتية، أخذ الفرنج الصليبيون في استخدام هذه الاستراتيجية ذاتها تحت قيادتهم الواحدة ضد قيادات المسلمين المتفرقة أيام ملوك الطوائف.

**لقد بقيت الاندلس مسرحاً لحوار الارادات المتصارعة، تعلم فيها الفرنج الصليبيون على أيدي قادة العرب المسلمين أسس التكامل في فن الحرب. واقتبسوا منهم الاسس الناجحة للسياسة الاستراتيجية. وأمكن لهم بذلك منافستهم في طرائق الحرب. وأضافوا الى ذلك قدرتهم على التفوق في ميزان القوى بنتيجة توافر القدرات البشرية على المسرح الاوروبي كله، وبذلك أمكن لهم تحقيق التحولات الحاسمة في مسيرة الصراع. وكان عهد الحاجب المنصور هو نقطة الانعطاف الحاسمة في التحولات المثيرة التي شهدها العرب المسلمون.**

## ٢- في أفق العمليات

### (مبادىء الحرب)

تميزت الاعمال القتالية للحاجب المنصور بالتطبيق الحازم لمبادىء الحرب، فقد كانت المباغتة، والمبادأة وأمن العمل والحركية واستخدام القدرة الهجومية والاقتصاد بالقوى هي من بعض عدة المنصور في حروبه. وكان تطبيق هذه المبادىء يرتبط بمعالجة كل موقف من المواقف، وهذا ما أبرزته سيرة المنصور القيادية، فكان في ذلك أبرز نموذج وأوضح برهان على ما تفردت به قيادة المنصور من الكفاءة العالية. كانت أندلس المسلمين في حالة حرب دائمة، وتكونت بنتيجة ذلك حصالة ضخمة من الخبرات القتالية، وكانت هذه الخبرة قاسماً مشتركاً بين القادة والمقاتلين. فكانت ممارسة أعمال القيادة صعبة جداً على مستوى التخطيط وسهلة جداً على مستوى التنفيذ وفقاً لما تبرزه مسيرة الاعمال القتالية. فالمعرفة المشتركة لطبيعة الاقليم ولمسرح الاعمال القتالية وطرائق العدو في خوض الصراع هي من العوامل المساعدة للمنفذين بقدر ما هي مساعدة للقادة في ادارة الحرب، ولكن، وإلى جانب هذه المساعدة فإن انتشار المعرفة العسكرية لم تكن لتسمح للقائد بارتكاب أي خطأ، أو الوقوع في أي مأزق من

مآزق الحرب المعروفة، وإلى جانب ذلك فقد كان لزاماً على القائد ابتكار طرائق جديدة، وإبداع أساليب متطورة حتى يؤكد فيها تفوقه القيادي، والارتفاع فوق مستوى المعرفة العسكرية الشائعة. وهذا ما فعله الحاجب المنصور في ادارته للحرب، فأمكن له بذلك فرض عبقريته العسكرية على الاكفاء من القادة والابطال من رجال الحرب. ولقد خاض الحاجب المنصور بقوات المسلمين زهاء ثمان وأربعين أو اثني وخمسين غزاة لم تنتكس للمسلمين فيها راية ولا فل لهم جمع، ولا هزمت لهم قوة، وليس ذلك إلا دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على تلك الكفاءة العالية التي أشرفت على ادارة الحرب. ولعل الإعداد لغزوة «شنت ياقب» وطريقة تنفيذها كافية لابراز تفوق الحاجب المنصور في مجال الإعداد للحرب واختيار الطرائق المناسبة لتنفيذ عملياتها. ويظهر تحليل هذه الغزوة أن النجاح فيها كان نتيجة للالتزام بتطبيق مبادىء الحرب في كل مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة وأثناء مراحل تنفيذها.

**لقد كان الحاجب المنصور يحرص كل الحرص على مباغتة اعدائه، وقد كان من الصعب الالتزام بشكل محدد من أشكال المباغتة الزمنية أو المكانية أو طريقة زج القوات أو الهدف من الحرب، أو حتى طرائق تفقيذ الاعمال القتالية وطرائق تحرك القوات. وكان لا بد من اعطاء المباغتة الشكل المعقد الذي يتجاوز حدود المباغتة التكتيكية ليصل الى المباغتة الاستراتيجية عن طريق مزج كل اشكال المباغتة في كل مرحلة من مراحل الاعمال القتالية.** وايضاحاً لذلك وعلى سبيل المثال، يمكن الاخذ بغزوة «شنت ياقب» التي سبقت الاشارة اليها، والتي بدأت بمباغتة زمنية ومباغتة في طريقة حشد القوات، ثم تبعت ذلك مباغتة على مستوى العمليات بتحقيق المباغتة

في التحرك البري والبحري المتواقت في آن واحد وكانت هناك مباغتة اخرى على مسرح العمليات برزت في الإعداد للانزال البحري بدعم من عمل المهندسين «الفعلة» واستخدم العنصر التقني لتمهيد الطرق عبر المضائق الجبلية. وكانت المباغتة الاستراتيجية في توغل قوات المسلمين الى اقصى حدود الجزائر في البحر مع اجتياح اقليم جيليقية بكامله. وكان تنظيم القوات في حد ذاته يحمل مباغتة أذهلت قوات الاقليم وحملتها على التطاير من وجه جحافل المسلمين الظافرة والتي لم يشهد الاقليم مثلها لا في حجمها، ولا في الامكانات المتوافرة لها.

وتكمن أهمية المباغتة باستمرار، بذلك الأثر النفساني الذي تخلفه وراءها، وهو مما يضع قيادات العدو وقواته في حالة من التشتت والضياع. الأمر الذي يساعد الطرف صاحب المباغتة على المضي نحو اهدافه دونما عناء كبير وبالتعرض لدفع الحد الأدنى من ثمن الحرب. وهكذا فإن قيمة المباغتة ليست قيمة مطلقة بقدر ما هي قيمة خاضعة لتوافر القدرة على استثمار الأثر الناجم عن المباغتة من أجل تطوير الاعمال القتالية بسرعة مذهلة، وعدم السماح لقيادات العدو بالتقاط أنفاسها واعادة تنظيم قواتها لتقديم مقاومات جديدة. وقد أبرزت سيرة الحاجب المنصور القيادية أن المباغتة لم تكن أكثر من وسيلة مرحلية لتحقيق هذه الغاية. وفي الحقيقة فالقدرة على استثمار المباغتة إنما تكمن بتطبيق بقية مبادىء الحرب وأهمها هنا المبادأة، واستثمار القدرة الحركية لتطوير الهجوم. فالامساك بالمبادأة هو الذي يسمح للقائد بتشكيل المواقف المتتالية والتي تضع قيادات العدو وقواته أمام المزيد من الارتباك والاضطراب وتجعلها عاجزة عن التحرك لاتخاذ المواقف التي تفرضها مسيرة الاعمال القتالية. وتظهر المبادأة في

كل مواقف الحاجب المنصور، وفي كل أعماله القيادية، فهو لا يترك لقيادة اعدائه أية فرصة للامساك بمبادأة تساعدها على اختيار مكان المعركة أو زمانها أو حتى اتخاذ التنظيم الدفاعي المناسب لخوض المعركة. وليس حرص الحاجب المنصور على تكثيف هجماته، ووصل الغزوات بعضها ببعض، إلا وسيلة للمحافظة على المبادأة من جهة وحرمان العدو من هذه المبادأة ـ من جهة ثانية ـ. وليس كالمنصور من يقدر قيمة المبادأة لاحراز النصر، وليس هناك كالمنصور أيضاً من يقدر قيمة النصر على مسيرة الاعمال القتالية سواء بالنسبة للاصدقاء أو الاعداء، **ومن هنا كان «البحث عن النصر» بصورة مستمرة هو الحافز الاول، لتطبيق أفضل الاسس والمبادىء المتوافقة مع كل حالة من الحالات، ومع كل موقف من المواقف، ولم يكن هناك لدى الحاجب المنصور أفضل من المباغتة والمبادأة للوصول الى النصر بالثمن المناسب للحرب، والذي كان أقله تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر المادية والمعنوية مع تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى حتى أقصى الحدود بالنسبة للاصدقاء. وهكذا بقيت المبادأة والمباغتة من المبادىء الجاهزة أبداً في خدمة الحاجب المنصور، الذي كان بدوره على استعداد دائم لاستخدامها في اللحظة المناسبة وفي المكان المناسب، لاقتطاف ثمن الجهد المبذول.** ولقد كان مبدأ «المباغتة» من أول المبادىء التي عرفها فن الحرب، شأنه في تلك شأن «المبادأة» وبقيت قيادات الجيوش منذ القدم تحرص على استخدام هذه المبادىء لتحقيق النصر. وهكذا فلم تكن القضية بالنسبة للحاجب المنصور هي قضية ابداع مبادىء جديدة، أو ابتكار أسس متقدمة، وإنما في تكوين الظروف الموضوعية لتطبيق هذه المبادىء على مستوى العمليات. وهنا تظهر كفاءة الحاجب المنصور وتفوقه القيادي الذي برز عبر «حوار

الارادات» ليفرض ذاته على الأصدقاء والاعداء ومن خلال التطبيق الماهر لمبادىء الحرب وفقاً لما تتطلبه مسيرة الاعمال القتالية. ولقد كان مبدأ (المبادأة) هو اول ما استخدمه الحاجب المنصور في حياته القيادية. فعندما تجرأ نصارى الشمال علـى ثغور المسلمين، إثر وفاة الحكم المستنصر، ووقوف الحاجب المصحفي موقف السلبية، أمسك الحاجب المنصور بالمبادأة، ورفض الخضوع لارادة قيادة عدوه، وقاد جيش قرطبة في أول غزاة له، وحقق نصره الحاسم. ولا ريب أن نتائج هذه التجربة القتالية الناجحة كانت ذات أثر عميق في دعم شخصية المنصور القيادية، فمضى لمتابعة الجهاد، ملتزماً طوال حياته بالامساك بالمبادأة وعدم التخلي عنها لاعدائه في أي موقف وأي ظرف. وكان في ذلك بعض عدته على النصر.

لم يكن باستطاعة الحاجب المنصور على كل حال تحقيق النجاح في تطبيق مبدئي المباغتة والمبادأة لـولا اعتماده على مبدئين آخرين يتوازيان ويتساويان في اهميتهما مع المبدئين السابقين، وهما: «أمن العمل، والقدرة الحركية العالية للقوات». وتبرز أهمية مبدأ العمل عند معرفة طبيعة مسرح العمليات الجبلية والصعبة والتي تحتمل امكانات تحقيق المباغتة في كل مرحلة من مراحل الاعمال القتالية. كما تبرز أهمية مبدأ القدرة الحركية العالية للقوات عند معرفة المساحات الشاسعة لمسرح العمليات، والحاجة للتحرك بسرعة من أجل تطوير الاعمال القتالية والمحافظة على المبادأة. وقد أظهر الحاجب المنصور باستمرار حرصه على حماية قوات المسلمين من المباغتة بقدر حرصه على مباغتة العدو. فكان يتخذ مجموعة من الاجراءات المعروفة بالمصطلحات الحديثة تحت أسماء تدابير الحيطة عند التحرك، وتدابير أمن العمليات، ومن ذلك، احاطة عملياته بنطاق محكم من السرية

المطلقة واختيار مناطق مختلفة لحشد القوات، ودفع عناصر الاستطلاع حتى الافق البعيد سواء أثناء التحرك أو عند اقتحام مسرح الاعمال القتالية، والتوسع الكبير في نشر شبكة الاستخبارات - الجاسوسية - ومحاربة استخبارات العدو وتدميرها، الى جانب ما يطلق عليه اسم «التمويه للعمليات» واتخاذ مجموعة من التدابير الخداعية لتضليل العدو. وبرهنت هذه التدابير على فاعليتها وقوتها، بحيث لم تتعرض قوات المسلمين لما هو معروف من مباغتات الحرب. واستطاعت قوات المسلمين بذلك ممارسة أعمالها القتالية في اطار من حرية العمل المطلقة. وإن مجرد استعراض سيرة الاعمال القتالية لابرز أيام الحاجب المنصور كافية لابراز مدى التعقيد الذي وصلته هذه الاعمال في تلك الحقبة التاريخية. وهذا مما يثبت ما كانت تتطلبه ادارة الحرب من كفاءة عالية توافرت للحاجب المنصور. ويذكر هنا تلك الغزوة التي خاضها عبد الرحمن الناصر لدين الله والمعروفة باسم «غزوة الخندق» والتي كان للمباغتة دورها الكبير في انتزاع المبادأة من قبضة يديه، وتعريض قوات المسلمين لهزيمة منكرة، مما دفع الناصر لايقاف قيادة الغزو بنفسه، في حين قاد الحاجب المنصور بنفسه كل غزواته ولم يتعرض لأي هزيمة حتى آخر يوم من حياته. وبدهي أن الهزيمة التي لحقت بالناصر لدين الله، لم تنتقص من كفاءته القيادية. غير أن عدم تعرض الناصر لأي هزيمة إنما هو برهان اضافي على ما توافر له من الكفاءة بقدر ما هو برهان أيضاً على الاستخدام الماهر لمبادىء الحرب وتطبيقها بحذق مثير للاعجاب. أما اهتمام الحاجب المنصور بتطوير القدرة الحركية، فيظهر من خلال اعتماده على استخدام القدرة البحرية لدعم حرب الحركة، كما يظهر بتحويل الجيش بكامله تقريباً الى قوة الفرسان، فقد استطاع من خلال اعادة

التنظيم الشامل حشد كل قوات الفرسان المنتشرة في كافة الاقاليم. وأمكن بذلك رفع القدرة الحركية حتى حدودها القصوى. ولم يكن اهتمام الحاجب المنصور بتمهيد الطرق، وتنظيم وحدات المهندسين - الفعلة - لشق الطرق، إلا برهاناً على الاهتمام بتطوير فاعلية القدرة الحركية للقوات واستخدام هذه القدرة للاعمال الهجومية. فكان في ذلك دعمًا لتنفيذ مبدأي المباغتة والمبادأة.

ويظهر من خلال ذلك حرص الحاجب المنصور على تطوير الإرث الحربـي والتجارب القتالية «أو خبرة الحرب» من خلال التكامل في استخدام مبادىء الحرب، وتوافق هذه المبادىء مع الاسس العامة للسياسة الاستراتيجية التي أبدعها المذهب العسكري الاسلامي. ثم طورها قادة العرب المسلمين باستمرار عبر تجاربهم القتالية، حتى اذا جاء الحاجب المنصور لم يتوقف عند حدود تطبيقها بكفاءة عالية وإنما عمل على تطويرها وفقاً لما فرضته المواقف القتالية المستحدة. فتحقق له بذلك ما لم يتحقق لسواه من الانتصارات الضخمة والتي لم تنتقص منها انتكاسة أو هزيمة. ولا ريب أن إيمان الحاجب المنصور العميق كان هو العامل الموجه له في كل تدابيره واجراءاته، مما مكنه من رؤ ية هدفه بوضوح تام، واختيار الطرائق المناسبة لبلوغ هذا الهدف.

# ٣- في ادارة الحرب

## (قوات المسلمين)

تميز عهد الحاجب المنصور بالتنظيم الشامل لموارد الدولة وامكاناتها، وتحويل المجتمع الاندلسي الاسلامي بكامله الى مجتمع حرب. وصحيح أن هذا المجتمع كان يعيش منذ الايام الاولى للفتح حالة الحرب الطويلة الأمد، غير أن الحاجب المنصور جاء بتنظيمات جديدة عن طريق دمج القبائل في تشكيلات الجيش بصرف النظر عن تنظيماتها القبلية. ورافق ذلك إعادة تنظيم للموارد-الشؤون الادارية او اللوجستيك - واستخدم الحاجب المنصور للوصول الى هدفه مجموعة من الأسس أبرزها: التحريض على الجهاد والعنف في القضاء على أعداء الاسلام والمسلمين مع حماية المرؤوسين من القادة والجند. وساعد المنصور في ذلك ما تميزت به شخصيته الفذة من الشجاعة في مواجهة الخطر واتخاذه القرارات الصحيحة في الوقت المناسب والإشراف على تنفيذها. وتظهر التجارب القتالية للعرب المسلمين أن اسلوب دمج القوات في تشكيلات قتالية تتجاوز حدود الولاء القبلي، إنما تعود الى الايام الاولى للفتح، وقد حدث ذلك في معركتي اليرموك والقادسية الخالدتين حيث استعاض خالد بن الوليد نظام الكراديس بنظام المساندة الذي كان يعتمد على التنظيم الاساسي

للقبائل. وكانت هذه التجربة المثيرة والناجحة بداية التنظيم المتطور للمعركة، غير أن الحاجة لاثارة الحماسة كثيراً ما ألجأت القادة الى اعادة فرز القوات تبعاً لعصبياتها. غير أن اثارة هذه العصبية، تختلف عن الانتساب لعصبية القبلية الجاهلية، إذ أنها تعتمد على العصبية بشدة الحماسة للجهاد والدفاع عن الاسلام حيث تحاول كل قبيلة أو عصبية التأكيد على شدة الحماسة والاندفاع للحرب من أجل نصرة الاسلام ورفع رايته. وهذا ما حدث في اليوم الثالث من أيام القادسية. كما حدث في عدد من الايام أثناء فتوح المشرق الاسلامي ومغربه. وجاء الحاجب المنصور ليعيد هذه التجارب ذاتها، وليدفع القبائل المختلفة والعصبيات المتنافسة من عرب وبربر وترك وصقالبة الى التنافس فيما بينها على شرف الجهاد، ودمجها في تنظيمات متشابهة من حيث دورها في القتال. وحقق المنصور نجاحاً رائعاً وصفه الشاعر العربي بما سبقت الاشارة اليه:

**تلاقت عليه من تميم ويعرب  شموس تلألأ في العلا وبدور**

وكان الحاجب المنصور وهو يثير الحماسة للجهاد، ينظر الى العالم الاسلامي، ويستشعر مسؤوليته عن المسلمين في كل دنياهم، ومن هنا، فهو يشعر بالالم لما أصاب المسلمين في المشرق الاسلامي من ضعف وتمزق أدى الى ظهور الملل والنحل البعيدة عن الاسلام والخوارج عليه من أمثال ـ القرامطة ـ وهو يأمل في أن تتوافر له الفرصة لقيادة المجاهدين من أجل القضاء على اعداء الدين في المشرق الاسلامي. وهو ايضاً ما سبقت الاشارة اليه، بما ورد على لسان الحاجب المنصور من شعر جاء فيه:

**عن قريب ترى خيول هشام  تبلغ النيل خطوها والشاما**

والمثير هنا هو أن الحاجب المنصور لا يعتبر نفسه هنا هو الحاكم المطلق، وإنما هو يقود «خيول هشام» الخليفة الشرعي. ومن المحتمل أن يكون هذا القول قد صدر عن الحاجب المنصور قبل أن تستحكم في قبضته الأمور، وفي الحالات كلها، فالحاجب المنصور، سواء كان عاملاً للخليفة هشام أو عاملاً باسمه، فإنه ينظر الى قضية الجهاد في سبيل الله كقضية متكاملة يرتبط فيها الانسان المسلم في أقصى المغرب بالانسان المسلم في اقصى المشرق. ومن خلال هذه الرؤية الشاملة استطاع الحاجب المنصور تقويم قضية الحرب الشاملة ضد المسلمين داخل بلاد المسلمين وخارجها- او على حدودها بتعبير أكثر دقة- وكان ذلك وحده كافياً لاشعار المسلمين المجاهدين في سبيل الله بثقل المسؤولية الواقعة على كواهلهم. والتأكيد بأن كل انتصار للمسلمين على جبهة الاندلس إنما هو انتصار لكل المسلمين في كل دنياهم وفي مختلف مواطنهم ومواقعهم. وقد كان ذلك وحده كافياً لدفع المسلمين من أجل تقديم أقصى ما يستطيعونه من الجهد المادي والمعنوي لنصرة قضية المسلمين. ولعل هذه النظرة الشمولية لقضية الجهاد في سبيل الله لم تكن أكثر من انعكاس للنظرية الاموية في معالجة قضايا الاسلام والمسلمين، وهي النظرية التي لم تلبث أن غرقت في متاهات الصراعات المذهبية والطائفية حتى انشلتها من جديد ظروف الحرب الصليبية في المشرق الاسلامي، ثم أعادتها الخلافة العثمانية لموقعها الصحيح مرة اخرى. ومن هنا يعتبر الحاجب المنصور أفضل من عبر عن فكرة الجهاد الشامل للمسلمين وأبرز هذه الفكرة في مجال التحريض على الجهاد على المسرح الاندلسي. فكان في ذلك بعض عدة لحشد كل طاقات المسلمين ومواردهم للحرب. **واذا كان لا بد للحاجب المنصور من تحريض المسلمين على الجهاد باسلوب**

**عملي وواقعي، ومن خلال منظور شامل. فقد كان لا بد له في الوقت ذاته من استخدام الحدود القصوى للعنف من أجل ارهاب اعداء المسلمين واستخدام أساليب عملية وواقعية أيضاً في هذا المضار. وقد كانت لظواهر العنف حججها وذرائعها.** ولقد اشتهر المسلمون عبر التاريخ بتقنينهم الشديد لاستخدام العنف في الحرب. وكان هدفهم الواضح دائمًا هو العمل لما بعد الحرب من أجل اقامة المجتمع الاسلامي. وكانت القيود الصارمة التي فرضوها على أنفسهم كثيرا ما تسببت في الحد من حرية عملهم العسكري، غير أن التضحيات التي تكبدوها في ذلك قد أينعت ثمارها الناضجة في اقامة المجتمع الاسلامي وتحقيق هدف الحرب وهو نشر الاسلام. غير أن صورة الموقف قد تبدلت هنا على مسرح الصراع الاندلسي لسببين: اولهما وجود محرض خارجي قوي تمثل في الجهد الكنسي لاستنزاف قدرة المسلمين. وثانيهما لجوء قوات نصارى الشمال الى تصعيد الحرب حتى فاعليتها القصوى واستخدام الارهاب لافراغ الثغور والمدن المتاخة لممالك النصارى من المسلمين وابعادهم عنها. ولجأ النصارى في ذلك الى اعمال الابادة والتقتيل والاسترقاق. الأمر الذي كان لا بد من معالجته بعنف مماثل يستثيره عامل الغضب لمحرمات المسلمين ومقدساتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد حرص المنصور في كثير من الاحيان على كبح جماح عواطف الانتقام والثأر، على نحو ما فعله عند الوصول الى «شنت ياقب» حيث فرض حراسة قوية لحماية الاماكن المقدسة. غير أن الأمر كان مغايراً عندما تعرضت قوات المسلمين للتهديد وذلك أثناء تصدي قوات النصارى للمسلمين وسيطرتهم على محاور العمليات في محاولة لتدمير قوات المسلمين أثناء انسحابها، وعندئذ، تراجع المنصور بجيشه على نحو ما سبق عرضه، وأقام

معسكره في منطقة مأمونة، ثم أرسل قواته للاغارة على المدن القرى المجاورة، وعمل على إبادة الاسرى وقتلهم، وسد الممرات الجبلية بجثثهم، مما أرغم النصارى على طلب المهادنة. ففرض عليهم شروطاً اضافية مثل تغريمهم بتقديم الخيول ونقل الغنائم الى بلاد المسلمين. وتبرز هذه الحادثة وحدها أهمية العنف في القضاء على أعداء المسلمين وفائدته في مثل هذا النوع من الصراع العقائدي. وتجدر الاشارة الى ظهور شواهد مماثلة أيام الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي، حيث عمل صلاح الدين الايوبي على ابادة فرسان الاستبارية والداوية والتيوتون من الثوائف الدينية نظراً لما ارتكبه هؤلاء من الجرائم بحق المسلمين. وكذلك فعل الظاهر بيبرس وأحمد بن قلاون. وهنا يمكن تكرار الحقيقة التاريخية المعروفة: وهي أن التطرف الاسلامي واستخدام العنف لم يظهر إلا بنتيجة ما ارتكبه الصليبيون من الاعمال الوحشية، وما أظهروه من التعصب الاعمى في العداء للاسلام والمسلمين.

واذا كان لا بد من استخدام العنف ضد أعداء الخارج. فقد كان لزاماً استخدام هذا العنف ذاته ضد عملاء الاعداء من الجواسيس والمأجورين، وكان الحاجب المنصور يقظاً حتى أقصى حدود اليقظة ضد أعداء الداخل، حتى أنه قضى ليلته مسهداً وهو يتابع تحرك جاسوس من الجواسيس، حتى اذا ما تم له القاء القبض عليه، وعرف منه اعضاء شبكة الجاسوسية، بادر بسرعة الى اعدامهم، وتعليقهم على أبواب قرطبة حتى (يتبع رأسها الذنبا) وحتى لا يترك لاعداء الداخل الفرصة للتخريب، ولاستفحال الخطر، فكان العنف هو الوسيلة الرادعة الوحيدة، والجزاء العادل لتلك العناصر التي ربطت نفسها بعجلة اعداء الاسلام والمسلمين. ولقد كان هذا

العنف هو أفضل الوسائل المتوافرة لحماية المجتمع الاسلامي الاندلسي ضد ما يتهدده من أخطار. وكان أثر استخدام العنف عميقاً في نفوس أعداء المسلمين، وهو الأمر الذي ابرزته قصة السارية التي تركها جند المسلمون مركوزة على جبل بقرب احدى مدائن الروم. فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل الجند وتركهم لها. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مبلغ الفزع الذي خلفته اعمال المنصور في نفوس أعدائه. بقدر ما يدل على أن القرار الذي اتخذه الحاجب المنصور في استخدام العنف وعمل على تطبيقه بحزم كان قراراً صحيحاً لمعالجة المواقف التي كان يتعرض لها. وفي الواقع فإن صحة هذا القرار، تستثير الاهتمام لاستعراض كافة المقررات التي اتخذها الحاجب المنصور خلال ممارسته لاعماله القيادية والتي تميزت بصحتها، ولو من وجهة المنصور على الأقل، أو من وجهة تلك الظروف التي تعرض لها أو المواقف التي جابهها. ومن المحتمل أن تتناقض الاجتهادات او تختلف في تفسير المضمون الحقيقي لتلك القرارات، غير أن وضعها في اطارها الزمني والمكاني، وفي مواجهة المشكلات التي برزت امام المنصور سيبرهن أنه من المحال اتخاذ مقررات اكثر صحة لمعالجة المآزق الطارئة او المواقف الناشبة. ومهما كان عليه الأمر، فإن النتائج التي أمكن الوصول اليها، كافية لتأكيد صحة تلك القرارات. والقضية بعد ذلك ليست مجرد اتخاذ قرارات صحيحة في مجابهة مواقف مستجدة، بقدر ما هي قضية الحرص على تطبيق القرارات بحزم وجرأة. وتلك هي الفضيلة الاخرى من فضائل الحاجب المنصور، والذي كثيراً ما جابه مواقف الخطر، عند لقائه بالاعداء، أو عند اصطدامه بالاصدقاء. وأمكن له في كل الحالات مجابهة مواقف الخطر بشجاعة نادرة وهو اذا ما اضطر الى

الفرار من وجه والد زوجته «الوزير غالب الناصري» فإنه لم يعدم الحيلة للقضاء عليه وتدميره. غيرأن سلوكه الشجاع في مواجهة الخطر يتمثل في مجابهة الاعداء بأكثر مما يظهر في مجابهة الاهل والاصدقاء. ولو أنه في الحالين لا يستريح ولا يهنأ حتى يتمكن من خصومه وحتى تتم له تصفيتهم. ولعل موقفه من نصارى الشمال، يوم سيطروا على محاور تحركه وحاولوا تمزيق قواته هو أفضل مثال على شجاعته في مواجهة الخطر، وهو في الوقت ذاته برهان على الدهاء الذي يعتمد على العقل لاتخاذ القرار المناسب في مجابهة الخطر. ومن المعروف أن الارهاق الجسدي، ومتاعب القتال، وظروف الضغط المستمر كثيراً ما تؤثر على القائد، وتحرفه عن المحاكمة السليمة او اتخاذ القرار الصحيح في مجابهة الخطر. وقد عاش الحاجب المنصور حياته في خطر دائم، متنقلاً فوق ميادين القتال وساحات المعارك. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد احتفظ ابداً بقدرته على اتخاذ القرارات الصحيحة لمجابهة ما يتعرض له من الخطر.

# ٤- الحاجب المنصور وقوات المسلمين

اشتهر المنصور بقسوته المتطرفة في قمع المخالفات الانضباطية، وقد يظهر من الغريب إقدامه على اعدام ذلك الجندي الذي أشهر سيفه أثناء استعراض القوات، غير أن المنصور الذي فرض على ذاته تلك القسوة ذاتها في حياته الخاصة والعامة، كان منسجمًا مع نفسه على الأقل وهو يقمع الانحرافات بمثل ذلك التطرف. وقد كان لتلك القسوة حجتها وذريعتها لاخضاع الجيش والزامه بنظام واحد. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، فقد كانت تلك القسوة غير بعيدة عن العاطفة الابوية في اطار الواجب. وها هو الحاجب المنصور يشاطر جنده لياليهم الماطرة، ويرأف بهم حتى أقصى حدود الرأفة. وهو يغدق عليهم دونما حساب. ويكفيهم همومهم، ويمسح عنهم بؤسهم، ويحمل من أعباء القتال فوق ما يحملون، ويعاني من جهد الحرب بأكثر مما يعانون، فليس من الغريب بعد ذلك أن يقمع بقسوة كل ظاهرة للاخلال بالنظام العام. وكان المنصور في سلوكه مع جنوده واتصاله بهم، يتوخى البساطة المتناهية، على نحو ما كان يفعل تماماً مع العامة من المسلمين، الأمر الذي لم يعرفه الناس من قبل في ظل

«الهيبة الاموية»، الأمر الذي وضع المنصور موضع الانتقاد الشديد وفقاً لما عبر عنه الشاعر بقوله في نقده لظواهر التبسط في سلوك المنصور:

**أمـور يضحك السفهـاء منها ويبكي من عـواقبها الحليم**

ترى هل كان الحاجب المنصور يحاول في ممارساته التأكيد على عدم الانسلاخ عن طبقته؟.

أم هل كان الحاجب المنصور يبغي من خلال ذلك كسب شعبية رخيصة بحسب المصطلحات الحديثة؟ أم هي وسيلته للوصول الى اعماق ما يتفاعل في نفوس الجماهير، وسبر ردود فعل الناس على أعماله وممارساته؟. مهما كان عليه نوع الاجابة، فالامر الثابت هو أن الحاجب المنصور قد عمل باستمرار على السير مع تيار الجماهير، ثم تحويل هذا التيار وتوجيهه نحو الهدف الاسمى وهو «هدف الجهاد». إن الحاجب المنصور هو رجل الشعب ـ وفقاً للمصطلحات الحديثة ـ وهو على الرغم من كل ما فعله، وبالرغم من كل ما وصل اليه من القدرة والسلطة، لم يحاول انتحال لقب الخلافة أو إمارة المؤمنين وبقي محافظاً على اللقب الذي منحه له البيت الاموي «الحاجب». ويمكن اعتبار هذه الظاهرة تعبيراً عن رغبة الحاجب المنصور في تجاوز الشكل للوصول الى المضمون الحقيقي من الحكم والسلطة، وفي الوقت ذاته، فإن هذا الشكل أصبح معدوم القيمة بعد أن أفرغ من مضمونه، وإن انتحال هذا الشكل قد يستثير جماهير المسلمين، فليترك الشكل وليحافظ على المضمون الذي يمكنه من أداء الواجب. وهكذا كان الحاجب المنصور في علاقته مع المسلمين، جماهيرهم ومقاتليهم، لا تأخذ من الشكل إلا بقدر ما هو ضروري لأداء الواجب، ولا تترك من المضمون إلا ما يتنافى مع هذا الواجب. ويفسر ذلك التناقض الصارخ

بين القسوة والرأفة، بين الحزم واللين. ولقد كان الهدف أو الواجب هو المقياس الموضوعي لكافة أعمال الحاجب المنصور وممارساته. وعلى هذا الاساس لم يكن هناك ثمة تناقض أبداً في ممارسات المنصور، إذ أن الهدف الثابت والرؤ ية الواضحة للامور هي قاعدة العمل التي تنطلق منها الممارسات المختلفة والظواهر المتباينة في ظواهرها والتي تلتقي كلها في النهاية من أجل خدمة الهدف والمحافظة عليه. وذلك هو الحاجب المنصور الذي تناقضت فيه الآراء، واختلفت فيه وجهات النظر، غير أنه بقي في حقيقته ثابتاً عند لقبه الحاجب وثابتاً عند دوره الحقيقي، قائداً، مجاهداً، صابراً، وقف حياته لخدمة المسلمين، وأخلص لقضيته التي هي قضيتهم، فبادلوه اخلاصاً باخلاص ووفاء بوفاء.

تولى الحاجب المنصور ادارة حرب المسلمين في صراع شبه متصل، وصفه هو ذاته بقوله لوفد النصارى الذي جاء لمفاوضته: «إن أصحابي أبوا أن يخرجوا، وقالوا: إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا، إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزوة، فاذا غزونا عدنا». وقد استمرت قيادة المنصور على هذه الوتيرة في قيادة الجهاد طوال ربع قرن ونيف، لم يظهر المسلمون خلالها تعباً من الجهاد، أو تذمراً من متاعب القتال. **وليس ذلك إلا برهاناً ساطعاً على ما تميز به المجتمع الاسلامي الاندلسي من «استعداد دائم للحرب». واذا كان ذلك هو وضع المجتمع الاسلامي، فإن موقف حاكم هذا المجتمع- الحاجب المنصور- لم يكن اقل من موقف مجتمعه، فقد تولى الحاجب المنصور ادارة الحرب وقد تجاوز عمر الشباب بلغ في سنة٣٦٦هـ الاربعين من عمره، واستمر حتى وفاته سنة ٣٩٢ هـ أي لمدة (٢٦) عاماً. وقد بقي المنصور وهو في عمر الشيخوخة على صهوة جواده،**

جـراراً للجيوش، مقداماً فـي ميادين القتـال، يتقدم المجاهدين علـى ساحات المجد والشـرف، فكـان بذلك النمـوذج الأمثل عـن «الاستعداد الدائـم للقتال» وأمـة هذه حالها، وهذا حال حاكمها، لا بد لها وأن تبلغ ما بلغته، وأن تحقق ما صبت اليه وما أرادته. وفي الواقع، فإن الاستعداد الدائم للقتال هو احدى خصائص المجتمع الاسلامي، منذ أن خرج العرب المسلمون من جزيرتهم وحتى أبلغوا رسالتهم للدنيا، غير أن ذلك لا ينتقص من دور الحاجب المنصور في توجيه كل الطاقات المتوافرة نحو الجهاد، وقد أعطى بذلك المثل بنفسه، فكان لا بد للمجتمع الاسلامي الاندلسي من السير على النهج الذي حدده الحاجب المنصور، والاستجابة له، وتلبية داعي الجهاد، وليس هناك من ينكر على المنصور دوره في ابراز خاصة «الاستعداد الدائم للقتال». ولعل أفضل برهان لهذا الدور هو ذلك التحول الذي عرفه المجتمع الاندلسي بعد غياب المنصور، من انصراف عن ميادين القتال، إلا بقدر ما تتطلبه عملية الدفاع عن النفس - وحتى في الحدودالدنيا لهذا الدفاع -. وهناك ثمة فارق كبير بين الاستعداد الدائم للقتال من أجل نقل الحرب الى بلاد الاعداء، وبين انتـظار هؤلاء الاعداء حتى يقتحمـوا على المسلمـين ثغـورهم وعواصمهم. ولعل ذلك وحده كافياً لابراز دور الحاجب المنصور في ابراز حقيقة المجتمع الاسلامي وميزاته القتالية وفضائله الحربية والتي تقف في طليعتها «**الكفاءة البدنية العالية**» و «**الروح المعنوية العالية**» وهما فضيلتان متكاملتان. فاذا كانت الكفاءة البدنية العالية هي عدة المجاهدين في سبيل الله في حربهم المستمرة والتي اتصلت فيها أيام الجهاد بلياليه وفصوله بعضها ببعض. فقد كان لا بد لهذه الكفاءة من أن تصل الى درجة من التعب تحت

ظروف تبدل المناخ، في الحر والقر، في المرتفعات العالية والوهاد السحيقة، علاوة على الجهد المبذول في التحرك الدائم، والجهد المبذول في القتال. وهنا يظهر عامل الايمان ليرفع من الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله، وليحفزهم من أجل احتمال المشاق، وبذل المزيد من الجهد حتى يأتـي الله بنصره. وقد يكون من الصعب جداً تصور مدى الجهد المبذول. وتقويم الكفاءة البدنية العالية التي كان عليها جيش المجاهدين في الحرب طويلة الأمد ما لم تتم معرفة الطبيعة الجغرافية للاندلس، وبما تميزت به منطقة القلاع «قشتالة» وما اشتهرت به منطقة جيليقية «غاليسية» من الوعورة في المسالك والتبدل في المناخ، وعندئذ فقط يمكن تقويم فضائل المجاهدين الحربية، وقدرتهم على احتمال الصعاب، وما توافر لهم من الروح المعنوية العالية. واذا كان جيش الفتح بقيادة الرواد الأوائل «موسى بن نصير وطارق بن زياد» قد جاس خلال هذه الديار كلها بعزيمة لا توصف واخلاص لا مثيل له، فقد كان جيش الجهاد أيام الحاجب المنصور على درجة الصلابة ذاتها وعلى مستوى الايمان ذاته.

إذ أن اعمال الفتح قد انتهت في زهاء ثلاثة أعوام، انصرف المسلمون بعدها لبناء المجتمع الاسلامي. في حين اضطر الحاجب المنصور لقيادة الجهاد طوال ربع قرن حتى أعاد لاندلس المسلمين مجدها وعزتها وقوتها على نحو ما كانت عليه خلال الايام الاولى للفتح. وهناك ثمة فارق كبير بين الجهد الحربـي المبذول أيام الفتح، وبين ذلك الجهد الذي قدمه جيش المسلمين أيام الحاجب المنصور وتحت قيادته. فقد خاض جيش الفتح حربه بأساليب متقدمة وطرائق متطورة أذهلت قادة الأعداء في الاندلس ودفعتهم الى الخضوع للمسلمين بعد معركة حاسمة «معركة وادي لكة» ومجموعة من أعمال الحصار والمعارك

الثانوية. في حين أصبح نصارى الشمال في عهد الحاجب المنصور، وقد تعلموا من العرب المسلمين طرائقهم وأساليبهم، وأخذوا عنهم تنظيماتهم، واكتسبوا حصالة من التجارب القتالية فأصبح القتال أشد ضراوة، وأصبح المقاتلون أكثر عناداً، وأصبحت الظروف ذاتها أشد تعقيداً، وبات انتزاع النصر أكثر صعوبة. وعند هذه النقطة يمكن إبراز كفاءة جيش المسلمين وفضائله أيام الحاجب المنصور، وتحت قيادته، والتي تعاظمت دونما ريب بالمقارنة عما كانت عليه خلال الايام الاولى للفتح، ويمكن أن يضاف الى ذلك أيضاً العامل الذي كان له دوره يقيناً في حفز المنصور دائماً «للبحث عن النصر» وتهيئة اسبابه، مما كان يفرض عليه أعباءا اضافية لم يكن قادة الفتح بحاجة للاضطلاع بها. ذلك أن هؤلاء قد أقبلوا على الفتوح تحت توجيه سلطة شرعية لها قدرتها ولديها امكاناتها لرفد جبهات القتال بالدعم المستمر حتى يتم النصر، وكانت دولة بني أمية في الشام قد بلغت أوج قوتها وذروة مجدها. فكانت بذلك قادرة على ممارسة دورها لدعم جيش المجاهدين مادياً ومعنوياً، في حين كان المنصور يمارس قيادته، وهو على يقين ضمناً بأنه يمارس دوره بسلطة اسمية وانه شبه منقطع عن دنيا المسلمين، بل إن المسلمين في المغرب الاسلامي كانوا بعيدين عنه بتأثير نزعات الطوائف «الفاطمية». فكان الحصول على النصر هو وسيلته الاولى ودعامته الاساسية للانتقال من نصر الى نصر، في حين كان من شأن الهزيمة لو حدثت أن تنعكس بشكل حاد على وضعه الخاص قدر انعكاسها على الوضع العام لمسلمي الاندلس. وتبرز هذه النقطة مدى صدق المنصور في جهده وجهاده، لقد أراد نصر الله، فنصره الله نصراً عزيزاً.

هناك نقطة لا بد من الاشارة اليها أيضاً، فقد خاض قادة الفتح

حربهم ضمن اطار صارم من القيود والضوابط التي حدت من حرية عملهم العسكري. ولم تكن أقل هذه القيود صرامة وجود عدد من القادة المتنافسين والمرتبطين بدار الخلافة، في حين مارس الحاجب المنصور قيادته في اطار من **«حرية العمل المطلقة ـ وغير المحدودة»**. إذ لم يكن هناك من يقف ليحاسب الحاجب المنصور عن أعماله وممارساته، ولم يكن هناك من يحد من حريته أو يقيدها. وكان لهذه الحرية في العمل ثمنها. إذ كان على الحاجب المنصور احتمال كافة النتائج، ولا ريب أن تقويم المنصور لأهمية هذه النتائج وخطورتها كان من جملة الحوافز الاساسية التي دفعته للموازنة باستمرار بين الواجب والمسؤولية.

وبعد، فقد أمضى الحاجب المنصور حياته مجاهداً على الجبهتين الداخلية والخارجية، من أجل توحيد قدرات الجبهة الداخلية لاحراز النصر الخارجي، واحراز النصر الخارجي لدعم الجبهة الداخلية؛ غير أن غياب الحاجب المنصور، فجر دفعة واحدة عوامل التمزق، فتشتت قوة المسلمين على ممالك وإمارات كثيرة يجدر استقراء ملامحها. للمقارنة بين أندلس المسلمين في عهده وخلال الفترة التي أعقبت حكمه. وهذا في حد ذاته أمر كاف لرفع الحاجب المنصور الى مرتبة مميزة بين مجموعة قادة العرب المسلمين.

# ٥ـ اندلس المسلمين بعد الحاجب المنصور
## (ملوك الطوائف)

كانت وفاة الحاجب المنصور نقطة تحول حاسمة في تاريخ أندلس المسلمين، إذ انتهى بوفاته عصر القوة والزهو، وهو العصر الذي تتابع فيه على حكم الاندلس ثلاثة من أقوى الحكام وهم عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور. وتفرقت الاندلس بعد غروب شمس العهد الاموي الذي دمره الحاجب المنصور، وتمزقت الى عشرين دولة أو إمارة مستقلة، متناحرة فيما بينها، متصارعة بعضها ضد بعض. وقد بقي حكام قرطبة هم أقوى هؤلاء الحكام، وبصورة خاصة منهم المعتضد بن عباد ومن بعده المعتمد. وحاول هؤلاء إنقاذ اندلس المسلمين واعادة توحيدها، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل وانتهى الأمر باستنجاد المعتمد بن عباد بالمرابطين، فقدم يوسف بن تاشفين وخاض إلى جانب المعتمد معركة «الزلاقة». ولم يلبث ابن تاشفين أن قضى على كل ملوك الطوائف. وقد يكون من المناسب هنا القاء نظرة عجلى على أندلس «ملوك الطوائف» وهي الفترة التي أعقبت وفاة الحاجب المنصور.

### ١ـ دولة بني حمود في «مالاقا» واستمرت أربعين عاماً وكان حكامهم على التوالي:

| اسم الأمير | بداية الحكم بالسنة الهجرية | السنة الميلادية | ملاحظات |
|---|---|---|---|
| ١ـ علي بن حمود الناصر | ٤٠٧ | ١٠١٦ | حكم في قرطبة سنة. |
| ٢ـ القاسم بن حمود المأمون | ٤٠٨ | ١٠١٨ | حكم في قرطبة ثلاث سنين. |
| ٣ـ يحيى بن علي بن حمود «المعتلي» | ٤١٢ | ١٠٢١ | حكم في قرطبة. |
| ٤ـ القاسم بن حمود «للمرة الثانية» | ٤١٣ | ١٠٢٢ | حكم في قرطبة. |
| ٥ـ يحيى بن علي بن حمود «للمرة الثانية» | ٤١٦ | ١٠٢٥ | حكم في قرطبة. |
| ٦ـ ادريس بن علي بن حمود «المتأيد» | ٤٢٧ | ١٠٣٥ | |
| ٧ـ حسن بن يحيى بن علي «المستنصر» | ٤٣١ | ١٠٣٩ | |
| ٨ـ ادريس بن يحيى بن علي «الثاني ـ العالي» | ٤٣٤ | ١٠٤٠ | |
| ٩ـ محمد بن ادريس بن علي «الأول ـ المهدي» | ٤٣٨ | ١٠٤٦ | |
| ١٠ـ ادريس بن يحيى بن علي «الثالث ـ الموفق» | ٤٤٤ | ١٠٥٢ | «للمرة الثانية» |
| ١١ـ ادريس بن يحيى بن علي «العالي» | ٤٤٥ | ١٠٥٣ | |
| ١٢ـ محمد بن حسن بن يحيى بن علي «المستعلي» | ٤٤٦ | ١٠٥٤ | |
| استيلاء المرابطون على مالاقا | ٤٤٩ | ١٠٥٧ | |

### ٢ـ دولة بني جهور في «قرطبة» واستمرت أربعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ ابو الحزم بن جهور | ٤٢٢ | ١٠٣١ |
| ٢ـ ابو الوليد محمد بن جهور | ٤٣٥ | ١٠٤٤ |

| ٣ـ عبد الملك بن محمد بن جهور | ٤٥٧ | ١٠٦٤ |
|---|---|---|
| المعتمد بن عباد يستولي على قرطبة | ٤٦٣ | ١٠٧٠ |

٣ـ دولة بني عباد في «اشبيلية» واستمرت سبعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

| اسم الأميـر | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد | ٤١٤ | ١٠٢٣ |
| ٢ـ عباد بن محمد المعتضد | ٤٣٣ | ١٠٤٢ |
| ٣ـ محمد بن عباد المعتمد | ٤٦١ | ١٠٦٩ |
| المرابطون يستولون على اشبيليا | ٤٨٤ | ١٠٩١ |

٤ـ دولة بني الأطلس في «بطليوس» واستمرت اثني وسبعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

| اسم الأميـر | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور | ٤١٣ | ١٠٢٢ |
| ٢ـ محمد بن عبد الله المظفر | ٤٣٧ | ١٠٤٥ |
| ٣ـ يحيى بن محمد المنصور | ٤٦١ | ١٠٦٨ |
| ٤ـ عمر بن محمد المتوكل | ٤٦٤ | ١٠٧٢ |
| المرابطون يستولون على بطليوس | ٤٨٨ | ١٠٩٤ |

٥ـ دولة بني يحيى في «لبلة» واستمرت ثلاثين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
| --- | --- | --- |
| ١ـ أبو العباس أحمد بن يحيى | ٤١٤ | ١٠٢٣ |
| ٢ـ محمد بن يحيى عز الدولة | ٤٣٤ | ١٠٤٢ |
| ٣ـ فتح بن خلف ناصر الدولة | ٤٤٣ | ١٠٥١ |
| المعتضد بن عباد يستولي على لبلة | ٤٤٥ | ١٠٥٣ |

٦ـ دولة بني مزين «باجة وشلب» واستمرت خمسة وعشرين عاماً، حكم فيها على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
| --- | --- | --- |
| ١ـ الحاجب عيسى بن محمد | ؟ | ؟ |
| ٢ـ محمد بن عيسى عميد الدولة | ٤٣٢ | ١٠٤١ |
| ٣ـ عيسى بن مزين «المظفر» | ٤٤٠ | ١٠٤٨ |
| ٤ـ محمد بن عيسى «الناصر» | ٤٤٥ | ١٠٥٣ |
| ٥ـ عيسى بن محمد «المظفر» | ٤٥٠ | ١٠٥٨ |
| المعتضد بن عباد يستولي على شلب | ٤٥٥ | ١٠٦٣ |

٧ـ دولة بني البكري في «ولبة وجزيرة شلطيش» واستمرت أربعين عاماً تحت حكم عبد العزيز البكري «عز الدولة» وذلك من

سنة ٤٠٣ـ ٤٤٣هـ=(١٠١٢ـ ١٠٥١ م) استولى المعتضد بن عباد بعدها على ولبة وشلطيش.

٨ـ دولة بني هارون في شنتمرية الغرب واستمرت خمسة وعشرين عاماً. حكمها سعيد بن هارون سنة ٤١٧هـ=١٠٢٦ م ثم خلفه ابنه محمد بن سعيد «المعتصم» سنة ٤٣٣هـ=١٠٤١ م واستولى المعتضد بن عباد على شنتمرية الغرب سنة ٤٤٣ هـ= ١٠٥١ م.

٩ـ دولة بني ذي النون في «طليطلة» واستمرت خمسين عاماً، حكمها على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ اسماعيل بن ذي النون «الظافر» | ٤٢٧ | ١٠٣٦ |
| ٢ـ يحيى بن اسماعيل «المأمون» | ٤٣٥ | ١٠٤٣ |
| ٣ـ يحيى بن اسماعيل «القادر» | ٤٦٧ | ١٠٧٥ |
| الفونسو السادس يستولي على طليطلة | ٤٧٨ | ١٠٨٥ |

١٠ـ دولة بني مناد في «غرناطة» واستمرت سبعة وسبعين عاماً، وحكمها على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ زاوي بن زيري | ٤٠٣ | ١٠١٣ |
| ٢ـ حيوس بن ماكسن | ٤١١ | ١٠٢٠ |
| ٣ـ باديس بن حيوس «المظفر» | ٤٢٨ | ١٠٣٧ |

| ٤ـ عبد الله بن «بلقين» | ٤٦٥ | ١٠٧٣ |
| --- | --- | --- |
| المرابطون يستولون على غرناطة | ٤٨٣ | ١٠٩٠ |

١١ـ دولة بني برزال في «قرمونة» واستمرت خمسة وخمسين عاماً، حكمها محمد بن عبد الله بن برزال بداية من سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣م .ثم خلفه عزيز بن محمد الملقب «بالمستظهر» في سنة ٤٣٤هـ = ١٠٤٢ م واستولى ابن عباد على قرمونة سنة ٤٥٩هـ = ١٠٦٧ م.

١٢ـ دولة بن دمبر في «مورور» واستمرت ثلاثة وخمسين عاماً، حكمها بن أبـي تزيري الدمري بداية من سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣م وخلفه ابنه محمد بن نوح المقلب «بعز الدولة» سنة ٤٣٣هـ = ١٠٤١ م وخلفه بعد ذلك مناد بن محمد «عماد الدولة» سنة ٤٤٥هـ = ١٠٥٣م. واستولى ابن عباد على مورور سنة ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م.

١٣ـ دولة بني خزرون في «اركش» واستمرت سبعة وخمسين عاما. وحكمها محمد بن خزرون الملقب «بعماد الدولة» بداية من سنة ٤٠٢هـ = ١٠١١م.وخلفه عبدون بن محمد بن خزرون سنة ٤٢٠هـ = ١٠٢٩ م . وجاء بعده محمد بن محمد بن خزرون الملقب «بالقائم» سنة ٤٤٥هـ = ١٠٥٣ م. واستولى بن عباد على أركش سنة ٤٦١هـ = ١٠٦٨ م.

١٤ـ دولة بني يفرن في «رندة» واستمرت خمسين عاماً: وحكمها هلال بن أبـي قرة اليفرني سنة ٤٠٦ هـ= ١٠١٥ م. وخلفه باديس بن هلال سنة ٤٤٥ هـ= ١٠٥٣ م، وجاء بعده أبو نصر فتوح بن هلال سنة ٤٤٩ هـ= ١٠٥٧ م. واستولى ابن عباد على رندة

سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م.

١٥ـ الدولة العامرية في «المرية» واستمرت سبعة وسبعين عاماً، حكمها على التوالي:

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ خيران العامري «حكم المرية ومرسية» | ٤٠٥ | ١٠١٤ |
| ٢ـ زهير العامري «حكم المرية ومرسية» | ٤١٩ | ١٠٢٨ |
| ٣ـ عبد العزيز «المنصور» | ٤٢٩ | ١٠٣٨ |
| ٤ـ معن بن صمادح | ٤٣٣ | ١٠٤١ |
| ٥ـ محمد بن معن «المعتصم» | ٤٤٣ | ١٠٥١ |
| ٦ـ أحمد بن محمد «عز الدولة» | ٤٨٤ | ١٠٩١ |

استولى المرابطون على المرية بعد أشهر قليلة من حكم الاخير لها (٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م).

١٦ـ الدولة العامرية في مملكة «مرسية». واستمر حكمها سبعين عاماً، خضعت في البداية للعامريين ثم حكم الطاهريون باسم عبد العزيز منصور صاحب بلنسية وولده عبد العزيز. ثم استولى المعتمد بن عباد عليها سنة ٤٧١ هـ= ١٠٧٨ م. واستولى المرابطون على مرسية سنة ٤٨٤ هـ= ١٠٩١ م. وتتابع على حكمها خلال هذه الفترة:

| اسم الامير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ خيران العامري | ٤٠٣ | ١٠١٢ |
| ٢ـ زهير العامري | ٤١٩ | ١٠٢٨ |
| ٣ـ أبو بكر بن طاهر | ٤٢٩ | ١٠٣٨ |
| ٤ـ أبو عبد الرحمن بن طاهر | ٤٥٥ | ١٠٦٣ |
| ٥ـ ابن عمار | ٤٧١ | ١٠٧٨ |
| ٦ـ ابن رشيق | ٤٧٣ | ١٠٨١ |

**١٧ـ مملكة «دانية والجزائر» واستمرت اثنين وثمانين عاماً. وتتابع على الحكم فيها:**

| اسم الملك | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ مجاهد العامري «الموفق» | ٤٠٠ | ١٠٠٩ |
| ٢ـ علي بن مجاهد «إقبال الدولة» | ٤٣٦ | ١٠٤٤ |
| ٣ـ المقتدر بن هود «صاحب سرقسطة» | ٤٦٨ | ١٠٧٦ |
| ٤ـ المنذر بن هود | ٤٧٤ | ١٠٨١ |
| واستولى المرابطون على دانية | ٤٨٤ | ١٠٩١ |

**١٨ـ مملكة «بلنسية» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً. وحكم فيها على التتابع:**

| اسم الأمير | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ الفتيان «مظفر ومبارك» | ٤٠٠ | ١٠٠٩ |
| ٢ـ لبيب العامري | ٤٠٨ | ١٠١٧ |
| ٣ـ عبد العزيز المنصور | ٤١١ | ١٠٢١ |
| ٤ـ عبد الملك بن عبد العزيز | ٤٥٢ | ١٠٦١ |
| **المأمون بن ذي النون يستولي على بلنسية** | ٤٥٧ | ١٠٦٥ |
| ٥ـ أبو بكر بن عبد العزيز «نائباً عن المأمون» | ٤٥٧ | ١٠٦٥ |
| ٦ـ عثمان بن أبي بكر | ٤٧٨ | ١٠٨٥ |
| ٧ـ القادر بن ذي النون | ٤٧٨ | ١٠٨٥ |
| ٨ـ القاضي بن حجاف | ٤٨٥ | ١٠٩٢ |
| **الكمبيادور والقشتاليون يستولون على بلنسية** | ٤٩٥ | ١١٠٢ |

**١٩ـ إمارة «شنتمرية الشرق» واستمرت اثنين وتسعين عاماً،** وحكمها في البداية هذيل بن عبد الملك بن رزين سنة ٤٠٣هـ = ١٠١٢ م، وخلفه ابنه عبد الملك بن هذيل سنة ٤٣٦هـ= ١٠٤٥ م. ثم جاء يحيى حسام الدولة سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م. ولكنه لم يستمر، **حيث استولى المرابطون على «شنتمرية الشرق» سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٤م.**

**٢٠ـ إمارة «البونت» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً، وحكم فيها على التتابع:**

| اسم الملك | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ عبد الله بن قاسم | ٤٠٠ | ١٠٠٩ |
| ٢ـ محمد بن عبد الله «يمن الدولة» | ٤٣١ | ١٠٣٩ |
| ٣ـ أحمد بن محمد «عز الدولة» | ٤٣٤ | ١٠٤٢ |
| ٤ـ عبد الله بن محمد «جناح الدولة» | ٤٤٠ | ١٠٤٨ |
| استولى المرابطون على «البونت» | ٤٩٥ | ١١٠٢ |

٢١ـ مملكة «سرقسطة» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً. حكم فيها على التتابع:

| اسم الملك | السنة الهجرية | السنة الميلادية |
|---|---|---|
| ١ـ المنذر بن يحيى التجيبي | ٤٠٨ | ١٠١٧ |
| ٢ـ يحيى بن المنذر «المظفر» | ٤١٤ | ١٠٢٣ |
| ٣ـ المنذر بن يحيى «معز الدولة» | ٤٢٠ | ١٠٢٩ |
| ٤ـ سليمان بن هود «المستعين» | ٤٣١ | ١٠٣٩ |
| ٥ـ أحمد بن سليمان «المقتدر» | ٤٣٨ | ١٠٤٦ |
| ٦ـ يوسف بن أحمد «المؤتمن» | ٤٧٤ | ١٠٨١ |
| ٧ـ أحمد بن يوسف «المستعين» | ٤٧٨ | ١٠٨٥ |
| ٨ـ عبد الملك بن أحمد «عماد الدولة» | ٥٠٣ | ١١١٠ |
| واستولى المرابطون بعد فترة قصيرة من حكمه على «سرقسطة» | ٥٠٣ | ١١١٠ |

# ٦- الكلمة الاخيرة في الحاجب المنصور

عودة الى البداية، ويقف القارىء عند سيرة الحاجب المنصور، ولا زال في فكره كثير من التساؤلات حول شخصية هذا القائد الذي شغل حيزاً كبيراً في تاريخ العرب المسلمين، ولا زال في نفسه الكثير من الانفعالات المتناقضة في أمر رجل الدنيا وواحدها، والذي لم يعول في دنياه إلا على قدراته الذاتية وامكاناته الفردية. فهل كان الحاجب المنصور مغتصباً للسلطة؟ وهل كانت ثمرة جهده وجهاده خالصة لوجه الله، ومن أجل رفعة الاسلام والمسلمين؟ أم هل كان مجرد رجل طموح، يدفعه حب المغامرة، فعل ما فعل وأنجز ما أنجز، من أجل عز الدنيا؟ ثم هل كانت ثمرة جهده وجهاده لترك دوي في الدنيا يبقى خالداً ما خلد المسلمون؟.

لا مجال للشك أو الريبة، فلقد عمل المنصور مجاهداً في سبيل الله، وكانت دنياه لآخرته، ولم يحمل معه من متاع الدنيا غير تلك الحفنة من التراب مما خلفته ايام الجهاد على ثيابه ليلقى بها وجه ربه. ولقد ادرك المنصور بعين المؤمن وقلبه ما يتهدد مجتمع الاندلس الاسلامي من الاخطار، وما ينتظره من المحن والكوارث. فمضى

يحمل الامانة، بعد أن رأى قصور من حوله وتقصيرهم، وبرهن أنه جدير برفع راية الجهاد في سبيل الله، وقيادة الدفاع عن مجتمع المسلمين، وتحصين هذا المجتمع ضد الامراض المتوضعة في جوفه، والمستوطنة في كيانه.

أما علاقته بسيدة البلاط الاموي- صبح البشكنسية- وأما تجاوزه للخليفة الشرعي هشام المؤيد، وأما غدره بصاحبه المصحفي، وأما صدامه مع والد زوجته الوزير غالب الناصري، وأما بناؤه للزاهرة وابتعاده عن الزهراء، فهي كلها من الامور التي تحتل موقعاً هامشياً عند مقارنتها بما أنجزه الحاجب المنصور لمصلحة الاسلام والمسلمين، وهي أمور لم يخل منها حكم في القديم والحديث. انها أقرب الى الهنات الصغرى، وهي إلى ذلك كانت من الضرورات لتأكيد التحولات الجديدة من جهة، ولخدمة الهدف الذي وقف الحاجب المنصور حياته على خدمته من جهة ثانية. ترى هل كان باستطاعة الحاجب المنصور أن يجعل من الزهراء عاصمة له ومقراً لحكمه، وهو بلاط خاص بالبيت الأموي؟.

وهل كان باستطاعة الحاجب المنصور التردد على البلاط الاموي، وتلقي التعليمات التي تحد من حرية عمله السياسية والعسكرية، في وقت كان يحتاج فيه لاطلاق كل الفاعليات السياسية والعسكرية دونما حدود أو قيود؟.

وأي انسان كان يستطيع أن يفعل غير ما فعله الحاجب المنصور وهو يقدم على ما أقدم عليه من أجل مصلحة الاسلام والمسلمين؟.

غير أنه كان يستطيع أن يتجنب نقطة واحدة، وهي عدم

الوصاية لابنه بالحكم من بعده، واعادة الشرعية الى اصحابها الشرعيين، غير أنه من المحتمل هنا أن يكون قد وجد في خليفته من القدرة ومن الكفاية ما لم يجده في رجال البلاط الاموي، ففضل ترك ثمرة جهده وجهاده في قبضة أقرب الناس اليه وأكثرهم حرصاً على أمانته.

تلك هي صفحات الحاجب المنصور، صافية كل الصفاء، ناصعة بيضاء في مجال الجهد والجهاد لا تشوبها شائبة، ولا تنتابها بقعة شوهاء أو نقطة مكدرة. ويمضي الحاجب المنصور للقاء ربه.

ويمضي المسلمون في الاندلس لمتابعة الجهد والجهاد في أيام لا تعد ولا تحصى، كان من أبرزها يوم الزلاقة، ويوم الارك، وكان من أسوئها يوم العقاب. وتتواتر الايام بين نصر وهزيمة. حتى جاء سقوط غرناطة بعد خمسة قرون تقريباً ايذاناً بانتقال الصراع من اندلس المسلمين الى المغرب العربي الاسلامي في حملات صليبية جديدة ومتطورة.

ويمضي الحاجب المنصور للقاء وجه ربه، ويخرج المسلمون بعد خمسة قرون من الاندلس، غير أنه ليس باستطاعة الانسان المسلم، إلا الوقوف خاشعاً وهو يجوس الديار الاندلسية، ليقف مذهولاً على اطلال «قلعة رباح» وحصن «الحامة» وسمورة وشلمنقة وقرطبة وحتى الزاهرة الدائرة. ويتذكر ذلك السيف الذي ما نبا، وهو مشهر يزود عن الاسلام والمسلمين، بإيمان ثابت لا يتزعزع، وصبر لا يعرف النفاذ.

هناك، في مدينة سالم، غاب السيف الذي طالما زاد عن حياض المسلمين.

وبمثل سيف الحاجب المنصور، وبمثل أقرانه من المجاهدين في سبيل الله، يبقى دور المسلمين خالداً على الدنيا، وتبقى رسالتهم مناراً لهذه الدنيا.



# محتويات الكتاب

# صدر عن «دار النفائس» للمؤلف

آ - الايام الحاسمة في الحروب الصليبية

ب- مشاهير قادة الاسلام. . .

١- عقبة بن نافع

٢- موسى بن نصير

٣- قتيبة بن مسلم الباهلي

٤- سعد بن أبي وقاص

٥- عمرو بن العاص

٦- أبو عبيدة بن الجراح

٧- خالد بن الوليد

٨- معاوية بن أبي سفيان

٩- صلاح الدين الايوبي

١٠- المظفر قطز، وعين جالوت

١١- الظاهر بيبرس، ونهاية الحروب الصليبية القديمة

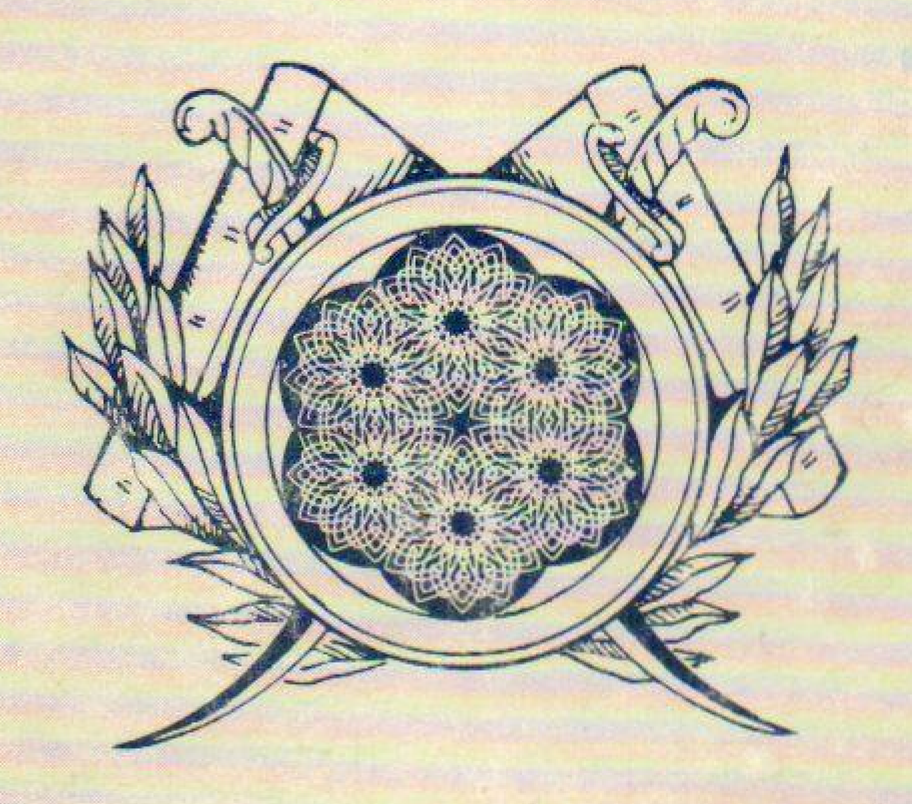
١٢- عبد الرحمن الداخل، صقر قريش

١٣- عبد الرحمن الناصر لدين الله

١٤- الحاجب المنصور

١٥- المعتمد ابن تاشفين ومعركة الزلاقة (تحت الطبع)

جـ - جهاد شعب الجزائر



دار النفائس ص.ب ٦٣٤٧ ـ ١١ هاتف ٣٠٢٥٣٨ ـ بيروت